الفصل الاول

(بماذا كانت تفتكر الملكة في ليل ١٥ يوليو سنة ١٧٨٩)

بعد اختلاء اندري بالملكة الى الساعة الحادية عشرة خرجت من لدنها وهي تمسح عينيها ولوائح الخجل والانفعال الشديد بادية في وجهها · اما القصة التي قصتها على الملكة فلاسبيل الى ذكرها الآن

وبعد خروج اندري دخلت الملكة الى غرفة نومها

وكان السكون قد ساد في قصر فرساليا وارخى الظلام سدوله على المنزل الملكي وجميع من فيه قد ناموا حتى الملك نفسه بالرغم عن اخبار باريز المزعجة ولم يبقَ في القصر ساهر الا الحراس الذين كانوا يحرسون دهاليز القصر بسكون كأنهم اشباح خرساء في ظلمة ذلك الليل · والملكة

وكانت الملكة تخطر في غرفتها ذهاباً واياباً امام نافذة فتحتها ليدخل منها هواء الليل تبريداً لما كان يجري في مفاصلها من الحرارة والحمى الدموية

وكانت متهيجة لامرين الاول سياسي والثاني قلبي · الاول لما ورد من اخبار باريز المقلقة والثاني لما سمعته من حبيبها دي شارني

فان اخبار باريز دلتها على قرب امحاء سلطة الملكية · وتلك الضربة التي ضربها الشعب في الباستيل دوى صداها في قلبها دوياً شديداً فرغبت ان تقابل القوة بالقوة فرأت نفسها عاجزة فصغرت نفسها واشتد غيظها

هذا من جهة السياسة · واما من جهة حبيبها دي شارني فقد آنست منه هذه المرة انه مع امرأته الكونتس دي شارني اشد لطفاً من ذي قبل · وقد سمعته يقول عنها قولاً جميلاً فخافت ان يكون قد انتبه قلبه الى جمالها فنهض الى حبها ولذلك لذعت عقرب الغيرة قلب الملكة

فكان في هذا القلب الملكي عقربان عقرب سياسي اثاره الشعب · وعقرب حبي اثارته الكونتس دي شارني

على ان حزنها هذا كان يمازجه بعض السرور · فان ضربتها الكونتس دي شارني قد

اعترفت لها بالجناية التي جناها عليها الدكتور جيلبار في حياتها . لقد ذكرت لها ان هذا الدكتور منذ كان ولداً بستانياً في تريانون وعمره ١٧ سنة باغتها واعتدى على شرفها . وانما سرت الملكة بهذا الخبر الهائل الذي سمعته من فم اندري وهي محمرة خجلاً ووجهها مطرق الى الارض لانها علمت ان هذه المرأة لم تبقَ اهلاً لحب رجل شريف كريم النفس كالكونت دي شارني.

ولكن الكونت لم يدرِ بتلك الجناية فكيف يعدل عن حب امرأته وهو لم يعرف بذنبها

واذا كانت الملكة قد سرتها حادثة اندري كضرةٍ لها فقد ساءتها كامرأةٍ لانها رأت في كبرياء عظمتها ان هذا الاعتداء الدنيء السافل الذي اعتدى به جيلبار في صغره على جسم اندري وشرفها لاحق بالشرف الانثوي فهو اذاً اعتداء على شرف جميع النساء . فثارت هنا كبرياء المرأة واتقدت نفسها بنار الغيظ والغضب من ذلك الرجل

ثم فكرت في خروجه من الباستيل وذكرت كتبه التي كتبها ومبادئه التي نشرها فخيل لها ان سقوط الباستيل وضربة الملكية هذه الضربة لم يكونا الا بسبب جيلبار . فان الشعب ما فتح الباستيل الا لانقاذه وما ثار على الملكية الا لما انبث في نفوس ابنائه من تلك التعاليم الثورية الذي كان جيلبار من نصرائها . فاشتد هنا بغضها لهذا الرجل واصبحت ترغب كل الرغبة في ان تراه لتعرف ذلك الوحش الهائل الذي سرق شرف امرأة شريفة واثار الهيئة المحكومة على الهيئة الحاكمة

ثم تاملت ماري انطوانت في اعتداء جيلبار على اندري فوجدت انه صورة مصغرة لاعتداء الشعب على الملكية . فان جيلبار وهو فتى مجهول من الطبقة السفلى ارتقى وصعد في السلم الاجتماعية الى درجة اصبح عندها جليس الملوك و باتت نساء الملكة وصديقاتها يرهبن جانبه . والشعب وهو في اسفل السلم السياسية ارتقى وصعد الى درجة اصبح عندها يناطح الملكية و يصفعها بضربات هائلة

فصممت الملكة على مشاهدة هذا الرجل الغريب في الصباح

وقضت ليلها من غير ان تنام لشدة هياجها وانفعالها . وما زالت في النافذة تشرف منها على رؤوس اشجار فرساليا والنجوم مشعشعة فوق راسها في قبة السماء حتى بدت في الافق رسل النور وانتشرت ذرات الضياء في الفضاء . وكانت وقتئذٍ الساعة الرابعة وقد دب في جفنيها النعاس فاستلقت على كرسي امام النافذة ونامت وهي تفتكر بالدكتور

جيلبار وقصته مع اندري

فحلمت في نومها حلماً مريعاً . حلمت انها كانت في تريانون فابصرت فتى بستانياً يدعى جيلبار فلما رآها تقدم منها ومدَّ نحوها يدين باصابع معكوفة كأنه يناديها اليه فاجفلت الملكة وصاحت في نومها

فجاوب صياحها صياح شخص من باب غرفة النوم

ذلك ان حدى نسائها دخلت عند انشقاق الصباح لافتقاد الملكة في سريرها فلما ابصرتها نائمة في كرسيها بقلق وانزعاج لم تتمالك ان صاحت صيحة استغراب ودهشة . ففتحت الملكة عينيها

فقالت خادمتها شغلتِ بالي يامولاتي بقلقك وانزعاجك فهل ننادي طبيباً

وكانت الملكة قد نهضت مذعورة لحلمها وهي تذكر الدكتور جيلبار فاجابتها . نعم نادي طبيباً فاني اشعر بضعف . نادي بالحال طبيباً من اطباء الملك يُدعى الدكتور جيلبار

فخرجت الخادمة لانفاذ امر الملكة

الفصل الثاني

(القوي ضعيف والضعيف قوي)

وكان الدكتور جيلبار في تلك الساعة في قصر الملك فابلغه احد الحراس ان الملكة تطلبه . فلما بلغه ذلك اضطرب في الباطن وان كان لم يبدُ في وجهه شيءٌ من الاضطراب . ثم قام على عجل وسار وراء الحارس قاصداً غرفة الملكة

وكانت الملكة تنتظره بصبر فارغ لشدة رغبتها في مشاهدة ذلك الرجل الغريب . وقد تصورته قبل دخوله انه رجل خشن الهيئة ضخم الجثة منبوش الشعر كالاغوال هائل المنظر شرس الطباع . وعند حضور هذه الصورة في ذهنها ذكرت ميرابو الذي كانت تكرهه اشد كراهة فازدادت كراهتها لجيلبار

ولكن لما دخل جيلبار الى غرفتها ابصرت امامها شاباً نحيل الجسم منتصب القامة لطيف الهيئة جميل الطلعة نظيف البزة حسن الهندام . فثارت نفسها دفعة واحدة . لانها رأت ان ذلك الرجل الخشن الذي خرج من الطبقة السفلى قد سرق ظواهر الطبقة العليا اذ خلع عنه لباس الخشونة والسماجة وارتدى لباس اللطف والظرف والكياسة فاصبحت تعتبره انه سارقاً لما ليس له وصار في نظرها مذنباً ذنباً جديداً

ولما دخل جيلبار رأت نساء الملكة في وجهها علائم الغيظ والحنق فعلمن ان الزوبعة قريبة ولكن لم يدرين لذلك سببا · فالتفتت اليهن الملكة واشارت اليهن بنظرها بنزق اشارة فهمن معناها فخرجن من الغرفة في الحال

فاصبحت الملكة وجيلبار منفردين وجها لوجه

وكان جيلبار قد دخل الى الغرفة بهيئة فيها شيء من الاحترام ولكنها تدل على كبر نفس الرجل وشممه فزادت هذه الهيئة الملكة غيظا على غيظ · فانتظرت حتى اغلق نساؤها الباب خلفهن فالتفتت الى الدكتور بنظر طافح بالكبرياء والاحتقار فرأت هذا الرجل يطيل النظر والتامل فيها من غير رهبة ولا احترام · فصاحت في وجهه قائلة · مالك تنظر الي هذه النظرات الطويلة · ألمثل هذا دعوتك الى هنا

وقد قالت هذه الكلمات بلهجة لو خاطبت بمثلها اميرا من امراء البلاط او قائدا من كبار القواد لانطرح على قدميها من الخوف والجزع · اما الدكتور جيلبار فانه اجاب بكل هدوء ورزانة قائلا

استدعتني جلالتك لمعالجتها فانا اعمل بوظيفتي وافحصها بعيني اذ اهم عمل في مهنتي هو الفحص والاستقصاء

فقالت الملكة اذا انت الآن تفحصني فقال نعم قالت وهل تجدني مريضة · قال اجدك متهيجة فقالت متهكمة لماذا لا تقول غضبي قال انما استعملت الكلمة الطبية بصفتي طبيبا · قالت فما سبب مرضي · قال هذا لا اعلمه لاول نظرة ياسيدتي لانني لست نبيا · قالت متهكمة ولكنك تعلمه فيما اظن عند النظرة الثانية · فاجاب الدكتور برزانة وهدوء ربما قدرت على ذلك · فقالت الملكة واين درست فاجاب درست في كل مكان · فرفعت رأسها وصاحت به ما هذا الاعتساف في القول · وكيف يدرس الانسان في كل مكان · فاجاب الدكتور من غير ان يغضب نعم ياسيدتي درست في كل مكان

فازدادت الملكة غيظا وصاحت به ولكنك تذهب بصبري بهذا الكلام فما تقصد بقولك « في كل مكان »

قال اقصد ياسيدتي اني درست في قصور الاغنياء واكواخ الفقراء · في المدن وفي الخلاء في الانسان وفي الحيوان اي ان درسي كان اختبارا لجميع امور الحياة

فسكتت الملكة وازداد غيظها لانغلابها فنهضت بنزق ثم جلست فاصابت يدها كاس شوكولاته على مائدة امامها فسقطت الكاس على الارض فانكسرت قطعا

فرأى الدكتور الكاس تتدحرج وتتكسر فلم ينحنِ ليلتقطها بل بقي صامتاً ساكناً فبلغ الاحمرار وجهها من الغيظ ولكنها تجلدت وسألته . ومن كان معلمك في حياتك . فاجاب الدكتور اخشى اذا اجبتك ياسيدتي على هذا السؤال ان اجرحك ايضاً

ولكن ما اتى جيلبار على هذه الكلمة حتى طار صواب الملكة فنهضت كاللبوة وصاحت به . تجرحني . تجرحني انا الملكة . انت تجرحني بكلامك . انت تجرح الملوك يارجل . يخيل لي انك لم تدرس ادب الكلام كما درست الطب او انك لم تدرس الطب اكثر مما درست ادب الكلام . ان من كان مثلك لا يجرح ملكة ولكن يتعبها و يضجرها فقط . قالت هذا وجلست بكبرياء وازدراء

اما جيلبار فقد بقي في خلال ذلك هادئاً صامتاً . ولكنها حين اتت على كلامها انحنى باحترام من غير ان تظهر علامات الغضب في وجهه وهمّ بالخروج . فلما رأت الملكة انه يطلب الخروج نهضت كأنها تطلب ايقافه . فوقف وقال . عفواً ياسيدتي فقد اخطأت في عزمي على الخروج ونسيت انك استدعيتني لاعالج مرضك وهياجك واني الآن امام مريض . فارجو ان تعذريني واعدك انني لا انسى ذلك فيما بعد

فاحست الملكة بما في هذا الكلام من المعنى ولكنها بقيت ساكتة . ثم نهضت فطافت الغرفة قليلاً وعادت فجلست قائلة . أأنت تُدعى جيلبار . فاجاب نعم ياسيدتي . قالت فاسمع لاقص عليك قصة صغيرة بقيت في ذهني منذ صغري . ذلك انني منذ سنوات طوال كنت في تريانون فوجدت في بستان هناك فتى حقيراً يلبس ملابس قذرة تدل على سوء حاله واسمه جيلبار

فقطع الدكتور الكلام عليها وقال برصانة وهدوء غريب . انا ذلك الفتى ياسيدتي

فرفعت الملكة راسها وقالت بكبرياء وشيء من الحنق . وهل من الفخر ان تكون انت ذلك الفتى . فسكت الدكتور لانه لم يفقه مراد الملكة فاستتبعت قائلة . ام تخالني انني لا اعرف ذلك الفتى حق المعرفة

فغار دم الدكتور الى قلبه واصفر لونه فشاهدت الملكة تاثره وسرت بذلك . ولكنه ما عتم ان قال . وما الذي يوجب سخطك على ذلك الفتى ياسيدتي . فقالت لا تضف الرياء والكذب الى الاثم فانك لا تجهل ان ذلك الفتى جانٍ اثيم . وللاثم والجناية عقاب صارم . كما تعلم

فادرك هنا الدكتور ان الملكة عالمة بكل شيء وان الاحترام لم يعد يجدي شيئاً

فاستعد للنضال ورفع راسه قائلاً . قلتِ جلالتك ان للاثم عقاباً في هذه الحياة ولكني اسالك ياسيدتي اين الانسان الفاضل او المرأة الفاضلة التي يجوز ان ترشق غيرها بحجر

فكانت هذه الضربة شديدة شديدة على قلب ماري انطوانت . فتحفزت للنهوض كاللبوة الغضبى وصاحت به ماذا تعني بهذا الكلام ايها الدكتور

فقال اعني به يامولاتي انك تصلينني حرباً لا استحقها وليس لك مقدرة عليها . فانك وان كنت ملكة فان سلطاني فوق سلطانك . وان شئت جربت ذلك واريتك قوتي.

فقالت الملكة مستهزئة سمعت انك من اولئك الاشرار الذين يستجيزون جناية التنويم وسرقة النفس والجسد معاً

فقال كلا ياسيدتي ليس التنويم المغنطيسي جناية ولكنه علم سيكون له في مستقبل الزمان شان عظيم . وان كنت ترتابين في تاثير هذا العلم فدعيني اجربه فيك

قال هذا وخطا اليها خطوة ومدَّ نحوها يده . فارتعدت فرائص الملكة لقوة غريبة شعرت بدبيبها في جسدها . فضحك جيلبار وقال . نعم هذا هو بدء التنويم ياسيدتي . ومنه تعرفين قوتي . لقد قضيت وقتك وانت تهينينني منذ ساعة دخولي لغير سبب اعرفه مع احترامي واخلاصي لك . فان اردت ابقاء هذه الحرب بيننا سهل عليَّ جداً اظهار ضعفك بازاء قوتي . فانه يكفيني ان اوجه ارادتي الى اردتك فاصرعها وافتح اسرار قلبك

نصاحت الملكة وهل تجسر ان تصنع ذلك بملكتك

فقال عفواً لا اصنع ذلك الا في حضرة شاهد يشهد عليَّ وعلى جلالتك . فقالت اذاً يكون ذنبك مزدوجاً . قال ولكن ما قولك اذ كان هذا الشاهد هو الملك بعينه

فطار صواب الملكة وتراجعت الى الوراء صائحة : الملك

فقال جيلبار نعم الملك . فانني استدعيه وباشارة مني انومك وافتح امامه خبايا قلبك فيسمع من فمك اموراً تدفنينها في اعماق صدرك ولا تقولينها حتى لنفسك . وليس ذلك فقط بل انني اشير لك الآن اشارة وآمرك بتناول القلم وكتابة ما في ضميرك على هذه الورقة التي على المائدة ثم آخذ هذه الورقة وانقلها الى الملك فيعلم منك ما لا تريدين اظهاره هل ترغبين في ان اجرب ذلك . وخطا نحوها خطوة

فارتعشت الملكة وازداد شعورها بذلك الامر الغريب الذي شعرت بدبيبه في جسمها فتراجعت الى الوراء وصاحت دكتور دكتور

فقال عفواً يامولاتي لا تخافي فانني اؤثر الموت على غضبك ولذلك فانني لا اصنع اقل

الامور التي توجب سخطك . وانما ارجو من فضلك بعد الآن ان تعرفي اخلاصي واحترامي وتتركي اهانتي

ثم ابتعد عنها فبطل ارتعاشها وفارقها ذلك الشعور الغريب. فنهضت كما ينهض عصفور كان مبتل الجنح وجف جنحه فقالت له بكبرياء وعظمة وهل تجد من دلائل الاخلاص والاحترام ان تسيء معاملة الملكة الى هذا الحد ايها الدكتور . ام انت تقصد الملوك لهذه الغاية

فانحنى الدكتور وقال عفوًا يامولاتي فانني كما قلت لك اوثر الموت على الإساءة اليك . ولكنك انت التي بادئتني بالعدوان واذا كان وجودي في البلاط ينغص لك عيشًا او يقلق بالاً فمريني بالسفر اسافر في الحال ولا اعصي لك امرًا . انما انبه جلالتك الى امر وهو انك اذا اردت ابعادي عن القصر رغبة في ابطال سلطة ارادتي ونفسي على ارادتك ونفسك فان عملك يكون لغوًا اذ هذه السلطة في البعد والقرب سيان اي ان التنويم المغنطيسي يعمل في الحالتين . والآن بعد هذه الملاحظة ارجو ان تامريني بالسفر او بالاقامة

ولكن ما اتم الدكتور كلامه حتى سُمع صوت الملك وهو قادم الى غرفة الملكة فقال جيلبار . الملك قادم ايتها السيدة فهل تكرمين بابلاغي اذا كان يجب ان اسافر ام ان ابقى . فقالت الملكة وهي مبهوتة متاملة بل ابقَ . وفي هذه الساعة دخل الملك

الفصل الثالث

(نصيحة تغيظ الملكة)

ودخل الملك بطيئًا متثاقلاً كعادته . وكان يبدو في وجهه اشتغال البال الا انه كان هادئًا ساكنًا على عكس منظر الملكة التي كانت في تلك الساعة في اقصى درجات التهيج والانفعال .

ولما دخل الملك قال على الفور اين الدكتور فقد ساءني غيابه . ثم التفت الى الملكة وقال عمي صباحًا ايتها السيدة لماذا حرمتني من الدكتور في هذا الصباح . فقالت ماري انطوانت دعوته لامر ما . فقال اراك صفراء اللون متهيجة وهذا ما كنت اخشاه لذلك جئت افتقد صحتك حين علمت انك طلبت الدكتور . فقالت انطوانت بل انا في خير ياسيدي . فقال الملك اظنك لم يبقَ بك حاجة اليه فاتبعني يادكتور فان لي معك شأنًا مهمًا

ثم همّ الملك بالخروج . فقالت انطوانت بل استميح جلالتك ان لا يذهب هل تعصيني باحضرة الدكتور . فقال الملك ولكن علينا ان نتحادث في هذا الصباح بامر سياسي قالت وما الذي يمنع من ان تتحادثا عندي . فقال الملك ضاحكاً اما هذا فلا نقدر عليه . فقالت ولماذا قال لانك تعلمين ان آراءنا مخالفة لآرائك . قالت بل اطلب ان اسمع حديثكما . فقال الملك باسماً ايضاً انصحك ان لا تطلبي ذلك لانك لا تطيقين استماع الآراء التي نراها . قالت بل اطلب سماعها . فقال الملك ما رأيك ايها الدكتور فقال الدكتور رايي ان نجيب جلالتها . فجلس الملك على كرسي مخملي هناك واشار الى جيلبار بالجلوس فجلس ايضاً . فقال الملك اخبرني الآن ايها الدكتور ما جاء بك باكرًا في هذا الصباح

فقال جيلبار جئت يامولاي لاقدم لجلالتكم نصيحة . وهي انني اطلعت على آراء الباريزيين ووقفت على ما ينوونه فثبت لي انه يجب ان تسافروا الى باريز

ولو ان جمرة نار سقطت في عشرة آلاف كيلوغرام من البارود وانفجر البارود لما كان انفجاره اعظم من انفجار الغيظ والغضب في صدر الملكة . فانها ما سمعت كلام جيلبار حتى وثبت عن كرسيها بقوة غريبة وصاحت به ماذا تقول ؟ الملك يذهب الى باريز

فقال جيلبار بهدوئه الاعتيادي نعم يامولاتي

اما الملك فنظر الى الدكتور وقال له اما قلت لك انها لا تطيق سماع حديثنا

فازدادت انطوانت غيظاً وهياجاً وقالت تخاطب جيلبار . كيف اجترأت ان تنصح الملك هذه النصيحة . اتريد قتل الملك حتى تشير عليه بالسفر الى باريز . الا تعلم ان سبعمائة الف وحش ينتظرونه في تلك المدينة الثائرة المتمردة للاساءة اليه والى رجاله

فعبس الملك وقال لماذا هذا الغيظ ايتها السيدة قبل استماع كلام الدكتور . اما الدكتور فالتفت اليها وقال . لو كنت اعلم ياسيدتي ان الملك يُساء اليه في باريز لما كنت اجترئ على النصيحة له بالسفر اليها . ولكني بعد درس طويل وبحث كثير وجدت ان وجوده في باريز مفيد الآن كل الافادة لذلك جئت اقترح ذلك على جلالته فاذا لم يجبني الى اقتراحي اضطر بعد ذلك ان يجيب الباريزيين الى هذا الاقتراح لانني تركتهم يفتكرون باستدعاء جلالته اليهم

فصاحت الملكة افهمت ياسيدي الملك . يقول الدكتور انك اذا لم تسافر الآن من تلقاء نفسك الى باريز فان الباريزيين يامرونك بالسفر اليها فتضطر الى انفاذ امرهم

فقال جيلبار ما قلتُ ذلك يامولاتي وانما قصدت ان اقول ان الملك اذا لم يذهب الى الباريزيين من تلقاء نفسه فانهم سياتون هم الى هنا و ياخذونه

فصرخت الملكة مظهرة علامة الفرح . تقول انهم ياتون الى هنا فاهلاً بهم وسهلاً . وكم يكون عددهم . خمسة الاف او عشرة او عشرين . انظر الى الجيوش التي تحيط بفرساليا فانني باشارة واحدة اسوقها عليهم فاعلمهم حينئذٍ كيف تكون الوقاحة والجرأة على ملوكهم

فقال الملك وهل تحسبين ياماري ان قلبي يطاوعني على ان اتركك تقتلين عشرين الف رجل من رعيتي

فصاحت الملكة ولكنك لن تذهب الى باريز وفيَّ نسمة حياة . انني اخشى عليك خشونة الباريزيين واعتداءهم فقال لا تخافي فانهم يحبونني . فابتسمت الملكة ابتسام استخفاف وقالت يحبك الباريزيون ؟ لو كانوا يحبونك لوجب ان يحترموا ممثليك . وهل قتلوا نائبك دي فلاسيل وعاملك دي لوناي لانهم يحبونك . او هل تظن انك لو كنت مكان دي لوناي لكانوا اقل جرأة على الشر الذي صنعوه بل كانوا اكثر جرأة لانك انت لا تدافع عن نفسك ولا يطاوعك قلبك ان تطلق النار عليهم بل تفتح صدرك لحرابهم . فانا لا ادعك تسافر الى باريز

فقال جيلبار بل تدعينه ياسيدتي . فان ذلك واجب في الاحوال الحاضرة . فازدادت غيظاً وصاحت ولكنك الا تعلم ان لوجوده الآن في باريز معنى عظيماً . فانه اذا ذهب الى هذه المدينة بعد ما حدث فيها من التمرد وجرى فيها من الدماء يكون كانه يوافق على كل ما حدث وجرى . كانه يقول حينئذٍ بوجوده انني راضٍ عن القتلة . راضٍ عن المتمردين الثائرين فهل تريد ذلك انت ايها الدكتور

فدبت روح الحماسة في نفس الدكتور وقال كلا ياسيدتي لا اريد ان يكون ذلك معنى سفره . ولكن سفره لا يكون له هذا المعنى ابداً . بل يكون معناه انكم اذنبتم فجئت لاعفو عنكم . انتم ابنائي وانا ابوكم . جنودكم هم جنودي وضباطكم ضباطي ومدينتكم عاصمتي والاصلاح الذي تطلبونه انا ارغب منكم فيه . فساعدوني والحقوني في هذا السبيل لنصلح ما في وسعنا اصلاحه

فقال الملك كئيباً هادئاً نعم وانا من رأيك ايها الدكتور وساسافر اليوم لا محالة فهمت الملكة بالصياح . فقال الملك بشيء من الحدة والغضب لا تعترضي ياماريـ

فانني ساسافر ولا يثنيني عن سفري شيء لانه واجب كما قال الدكتور هلمَّ بنا لنستعد له

ولا يستطيع قلم ان يصف غيظ الملكة في هذه الساعة ولكنها اضطرت ان تكظم ما في نفسها بازاء ارادة الملك . على انها سالته بحزن ظاهر متى عزمت جلالتك على السفر فقال في هذا النهار . قالت بل ارجوك ان تؤخره . قال ذلك امر يصعب عليَّ . قالت بل ارجو ذلك منك . اخره الى الغد فقط وغدًا تسافر بحراسة الله . فقال الملك وما الموجب الى هذا التاخير الديك امر سياسي ام تنتظرين مددًا عسكريًا من الخارج او ماذا . فاجابت لا انتظر شيئًا ولكني ارجوك ان تنتظر الى الغد . قال وهل تمانعين غدًا . قالت غدًا لا امانع بل اودعك واستودعك الله . فقال اذًا اترك ذلك الى الغد اكرامًا لك . ثم نهض واشار الى الدكتور ان يتبعه . فقالت الملكة للدكتور وهو خارج اذكر ايها الدكتور انك الرجل الوحيد الذي يقترح على الملك هذه الاقتراحات ويحادثنا بهذه اللهجة التي تحادثنا بها . فقال جيلبار ذلك ياسيدتي لانني الرجل الوحيد الذي يقول الحقيقة لكم في الاحوال الحاضرة وكوني جلالتك على ثقة من انه لا يوجد الآن شيء لانقاذ الملكية غير العلم بالحقيقة والعمل بها

قال هذا وانحنى باحترام كثير وخرج يتبع الملك

وكان في فناء قصر الملكة ضباط يتحادثون فلما راوا الملك مقبلاً هتفوا جميعًا « ليحيي الملك » فجاوبهم من داخل القصر وجوانبه صياح ضباط وحراس آخرين قائلين « ليحيي الملك » فوجد الملك لهذه المظاهرة سرورًا كثيرًا في وسط احزانه وشواغله

وقد سمعت الملكة ايضًا صياح الضباط « ليحيي الملك » فاطلت من النافذة لتراهم فوقع نظرها على باريز البعيدة فقالت وهي تنظر اليها بغضب وغيظ . نعم ليحيَ الملك والملك يحيي لا محالة . الملك يحيي وانت ياباريز الملعونة لا تستطيعين ان تمسيه بسوء . سانتشل من مخالبك الفريسة التي تطلبينها وادعها تحيي بالرغم عنك ايتها الهاوية الجهنمية الهائلة

قالت ذلك وهي تمد قبضتها النحيفة النحيلة نحو باريز البعيدة متهددة متوعدة . ثم نادت اقرب نسائها اليها وهي مدام كمبان ودخلت واياها الى غرفتها واغلقتا الباب خلفهما

الفصل الرابع

(شهلمة الملك)

وفي صباح اليوم الثاني ارسلت الملكة تستدعي الملك باكرًا اليها

فاستغرب الملك هذه الدعوة · وكان قد لبس ملابس السفر · فتناول طعام الصباح وهو شيء من مرق اللحم والنبيذ ثم قصد منزل الملكة وهو خائف من ان تكون قد غيرت عزمها في تلك الليلة

فلما دخل الملك عليها لم يجد عندها احدًا غير مدام كبان اقرب نسائها اليها · وكانت الملكة اشد صفرة من اليوم السابق ولكن فمها كان يبتسم ابتسامًا اغتصابيًا اذ ادل على سكينة بالها فان عينيها كانتا تدلان على قلقها

فحياها الملك ثم سالها كيف اصبحت وما تطلب · فاجابت كنت احب ان جلالتك تاتيني بملابس النوم قبل لبس ثيابك طبقًا لما طلبت منك مع الرسول · فزاد استغراب الملك لهذا الكلام وخطرت في باله خواطر كثيرة تفسيرًا لقول الملكة ثم قال وهو مشتغل البال لم افهم معنى كلامك أ لعلك غيرت عزمك في هذه الليلة · فقالت كلا وانما كنت احب ان تأتيني بملابس النوم لا بهذه الملابس · فقال الملك وهو يكاد يفقد الصبر لهذا لهذا الكلام المبهم ولماذا تكرهين هذه الملابس فان هذا الثوب البنفسجي الذي البسه الآن يحبه الباريزيون لانهم الفوه فقالت لا اكره ملابسك بل بالعكس اراها جميلة ولكن اسمع لي كلمتين يا ملكي · انت الان مسافر الى باريز فانت الآن مستهدف لرصاص الثائرين وخناجر المتمردين · افلا تجد من الحكمة ان يلبس الملك عند القائه بنفسه في وسط المدينة المتمردة ثوبًا يمنع ان تصل اليه رصاصة تطلقها يد اثيمة او سكين تمدها قبضة جانية

فاجاب الملك احسنت بهذا القول واز يد عليه ان الوسام الذي على صدري فوق القلب تمامًا دليل للرصاص الى مقتلي

فسرت انطوانت لموافقة الملك على كلامها واشارت الى مدام كبان اشارة معنوية والسرور بادٍ في وجهها · فتقدمت مدام كبان من خزانة وتناولت منها شيئًا ثقيلاً ملفقًا بقطعة نسيج والقتها الى الملكة

ففتحت ماري انطوانت هذه « البقحة » واخرجت ما ضمنها فاذا به صدرة لامعة لمعاناً غريب الهيئة . فاخذتها وارتها للملك قائلة انظر هذه الصدرة الجميلة

فقال الملك متعجباً . ما هذا . ثم تأمل الصدرة بين يديه وقال . هذه صدرة من الفولاذ الدقيق . ما احسن حبكها وادق فولاذها . فقالت ماري أنطوانت نعم فانها مفردة في بابها لانها تكسو لابسها من عنقه الى اعلى نخذيه وتكون خير واقٍ له . فقال الملك احق ما تقولين ثم خلع سترته ليجربها

فكادت الملكة تطير فرحاً فلبس الملك هذه الصدرة الغريبة فغطت جسمه من عنقه الى اسفل بطنه . وكانت الملكة تنظر اليها باسمة مسرورة بلبس الملك اياها . ولما فرغ الملك من لبسها وتزريرها امرّ يده عليها فاحس بان يده لمست خدشاً خفيفاً فجس هذا الخدش وسأل الملكة ما هذا . فضحكت ماري انطوانت وقالت اذا ذكرت لك سبب هذا الخدش الخفيف فانك تستغرب ذلك كثيراً . فقال وما سببه . قالت سببه انني لما ابتعت هذه الصدرة اردت تجربتها لارى اذا كانت كما قيل لي . فدخلت انا ومدام كمبان الى غرفة عميقة واغلقنا كل الابواب ثم تناولت فرداً محشواً واطلقت رصاصة على هذه الصدرة بيد مرتجفة وقلب خافق . فبلغ الاستغراب من الملك مبلغه فقال وبعد ذلك ؟ فقالت بعد ذلك فحصتُ موضع الرصاصة فوجدت انها لم تخدش الصدرة الا الخدش الخفيف الذي رايته وقد انبطحت الرصاصة وتسطحت لمقاومة الصدرة لها وعجزها عن خرقها .

فضحك الملك وقال ما اكرم اخلاقك يا ملكتي واشد عنايتك . ثم مدّ يده وهم بخلع الصدرة عن جسمه

فاضطربت الملكة وصاحت ما لجلالتك تنزعهـا فقال كفى فانني قد اختبرتها قالت ولكنني لم ابتعها لتختبرها فقط بل لتلبسها وتدخل باريز بها خوفاً عليك من رصاص الاشقياء وخناجر الاشرار لان الرصاص والخناجر ترتد خاسئة عنها

فضحك الملك وقال اما هذا فلا تطلبيه مني يا ماري . فصاحت الملكة ولكنهم يقتلونك فقال الملك انني كأبٍ للشعب اعتبر من واجباتي ان لا اسيء الظن بابنائي . ومع ذلك فان اشراف مملكتي يذهبون الى الحرب مستقبلين الرصاص بملابس القطن و ينزلون الى ساحة البراز مستقبلين رؤوس السيوف بقمصانهم الحريرية فقط . وبما انني انا زعيمهم ورئيسهم فينبغي ان اصنع صنعهم ولذلك استقبل الرصاص والحراب بملابسي الحريرية

فرفعت الملكة يديها حين فرغ الملك من كلامه وصاحت آه ليت جيشه يسمعه الآن

ليشهد بسالته. واما الملك فانه خلع الصدرة ولبس رداءه ببساطة عجيبة وهو يجهل انه قال قولاً شريفاً وعمل عملاً سامياً

ثم خرج من غرفة الملكة والملكة تثني الصدرة بين يديها المتهيجتين وتقول في نفسها ايمكن سقوط ملكية يكون في ملكها هذه الكبرياء في مثل هذا الموقف

الفصل الخامس

(السفر)

وبعد خروج الملك من لدن الملكة دعا اليه الضباط الذين اختارهم لمراقبته في سفره الى باريز وحضر معهم القداس في كنيسة القصر. وفي الساعة التاسعة جلس معهم الى المائدة

فطلبت الملكة ان تجلس معه الى المائدة ايضاً لا لتاكل فانها لتهيجها كانت لا تشتهي طعاماً ولكن وداعاً له فجلست وعيناها حمراوان منتفختان من البكاء واجلست معها ولديها وهما فتى وفتاة

وكانت قد اطلعتهما على سبب سفر ابيهما فكانا كئيبين حزينين يا كلان والدموع في عينيهما تتساقط بسكوت وهدوء فتأمرهما امهما ان يمسحاها فيمسحاها بصبر وثبات جأش ملكي فاثر هذا المنظر في نفوس الحاضرين اشد تاثير وملأ نفوسهم حناناً على الولدين وغيظاً من الباريزيين

اما الملك فكان يظهر البشاشة وكان يحادث الملكة والضباط وهو يا كل بشهوته الاعتيادية دون ان ينظر الى احد منهم

ولكن ما كاد الملك يفرغ من الطعام حتى دخل بعض الضباط مسرعين واخبروه بان الوفاً من الباريزيين قادمون على طريق باريز وقد قربوا من قصر الملك

فاصفرت الملكة عند هذا الكلام اما الدكتور جيلبار وكان حاضراً فانه نظر اليها نظرة معنوية كانه يقول لها : اما اخبرتك انهم يأتون

فسأل الملك الضباط وكيف هيأتهم . فاجابوا انهم في سرور ولوائح الرضى على وجوههم

فصاحت الملكة اغلقوا مع ذلك حواجز القصر الخارجية زيادة في الاحتياط . فصرخ الملك لا لا اياكم وهذا الامر اما انت يامسيو بوفو فانزل على عجل واعدّ لهم مرطبات

لتبريد غليلهم

فاطاع المسيو بوفو وهو رئيس مائدة الملك وخرج لانفاذ امره

وما خرج بوفو حتى سمع الحاضرون نافذة تُفتح في تلك القاعة ۰ فالتفتوا فابصروا الدكتور جيلبار يفتح نافذة بحجة تجديد هواء الغرفة ۰ وبعد فتحها اطل منها على الجمع الزاحف الى فرساليا وقال ۰ يا للغرابة فاني ارى بين القادمين اولادًا صغارًا

فسالت الملكة مدهوشة اولاد صغار فقال جيلبار نعم ۰ ففتحت الملكة فاها لتقول كلمة ولكن هذه الكلمة وقفت في فمها اوقفها البغض والكبرياء فسكتت ۰ اما الملك فقال في الحال ۰ تقول ايها الدكتور ان معهم اولادًا ۰ فقال الدكتور نعم ومنهم بعض لا يتجاوزون العاشرة من العمر وجميعهم لابسون ملابس الحرس الوطني وذلك لشدة حب الشعب لهذا الجند الجديد الذي تالف حديثًا

فقال الملك حرام علينا ان نترك هؤلاء الاولاد الصغار في حر الشمس خارج القصر افتحوا الابواب وادخلوا الجمع كلهم ليستريحوا في الظل

فنظر حينئذٍ جيلبار الى الملكة نظرة ذات معنى فعلمت انه يريد بنظرته انه كان يجب ان يسمع الملكة تجيب ذلك الجواب بدل الملك لانها امرأة والحنان من شان النساء ۰ فاحمرت خجلاً وسكتت

فادخل الجمع الى فناء القصر ودهاليزه وعدده عشرة الآف رجل ثم اديرت عليهم المرطبات فصرخوا يهتفون للملك وهم في اتم سرور ورضى ۰ وكان غرضهم من المجيء الى فرساليا استقبال الملك لانهم سمعوا بانه مسافر في ذلك النهار الى باريز

وقبل تألف الموكب للمسير الى باريز سئل الملك كيف يكون سيره فاجابت الملكة يسير في مركبته ركضاً بقدر استطاعة الخيل فقال الملك لضباطه كلا وانما تسير مركبتي مع الجمع سيرًا بطيئاً كسيره لانني اكره ان اتعبه ولا سيما الاولاد الذين معهم ۰ فتنهدت الملكة وسكتت

ثم نهض الملك الى ركوب مركبته فعانقته الملكة تودعه وتعلق بعنقه ولداه يبكيان فحول الملك وجهه عنهما حتى لا يزيد انفعاله وتاثره ۰ واخذت الملكة تحادث كلاً من ضباط الملك على حدة وتحثهم على حفظ حياة الملك والسهر عليها فكانوا كلهم يضعون ايديهم على قلوبهم وعلى سيوفهم للدلالة على انهم يفدون الملك بارواحهم ۰ ثم ركب الملك مركبته وركب ضباطه ورجال حاشيته في مركبات وراءه

اما الدكتور جيلبار فان الملكة دنت منه قبل سفره وقالت له انك قد اشرت على الملك بهذا السفر فاعلم انني اطالبك بحياته واذا اصابه شر فان حياتك في خطر · فانحنى الدكتور باحترام وقال نعم حياتي معلقة بحياة جلالته

ثم ركب المركبة التي خصصوها به وراء موكب الملك · وكانت هذه المركبة مركبة المسيو بوفو

ولما تحركت مركبة الملك احاط بها حرسه الخاص من كل جانب وسارت بين تلك الالوف المؤلفة والجماهير المتماوجة قاصدة باريز المتمردة

وكانت الجماهير حول المركبات الملكية كالبحر العجاج المتلاطم بالامواج وجميع الناس في فرح وسرور لعودة الملك الى مدينتهم· وكانوا يتحدثون فيما بينهم باحاديث مختلفة فاصغى الدكتور وهو في مركبته لبعضهم فسمعهم يتساءلون عن هذا الراكب في هذه المركبة فاجاب بعضهم هذا المسيو بوفو رئيس مائدة الملك · فقال غيرهم ما هذا بالمسيو بوفو لان المسيو بوفو سمين غليظ الجثة وهذا نحيل نحيف · فقال آخرون ولكن الا ترى شعار مركبته

واذا بصوت جهوري ينادي قائلاً من يقول انه المسيو بوفو · هذا هو الرجل الفاضل الطائر الصيت · سلام ايها الدكتور

فالتفت جيلبار لهذا الصوت وصاح· بيلو ما جاء بك · فقال بيلو جئت لاستقبل الملك قال واين بيتو قال ها هوذا خلفي ثم التفت وصاح· بيتو تعالَ وسلم على الدكتور

فاندفع بيتو نحو المركبة يدفع الناس تارة بيديه وطوراً بمنكبيه حتى وصل الى الدكتور فسلم عليه · وحينئذٍ قص عليهما الدكتور كل ما جرى له مع الملك واطنب في وصف مآثره ورغبته في خير الرعية وذلك بقصد استمالة رأي الجمهور اليه فاثر كلام الدكتور في سامعيه فاخذ بيلو وبيتو يصيحان بكل قواهما « ليحيَ الملك » فتناقلت اصوات الحاضرين هذا الهتاف من مكان الى مكان حتى بلغ الجماهير التي كانت محيطة بمركبة الملك فسمع الملك هتافهم ووجد لذلك سروراً جديداً

وبذلك نفعه الدكتور نفعاً كبيراً

وفيما كان جيلبار يحدث بيلو عن مناقب الملك قال بيلو بغتةً شوقتني الى رؤية الملك فكيف اراه · واتفق حينئذٍ ان جيلبار مد بصره الى بعيد فابصر احد حراس الملك يدنو من مركبته وهو يفسح مجالاً لفرسه بين الجمهور بلطف وتأنٍ فعلم ان الفارس يطلبه · فنزل

من المركبة وساله اظنك تطلب الدكتور جيلبار فقال الفارس نعم قال انا هو قال يدعوك جلالة الملك اليه فقال هلم بنا ثم اشار الى بيلو وبيتو ان يتبعانه واتجه بهما صوب مركبة الملك يزحمون الناس زحماً

الفصل السادس

(على الطريق)

وظل الدكتور وبيلو وبيتو يزحمون الجمع ويدفعونه تارة بايديهم وطوراً باكتافهم سائرين وراء فرس الحارس حتى وصلوا الى مركبة الملك فكان الشعب يتزاحم تزاحماً شديداً حول هذه المركبة لان لويس السادس عشر كان لا يزال يومئذٍ محبوباً

ولما وصلوا الى المركبة التفت الملك الى جيلبار وقال له ما اجمل الطقس واجمل هذا الشعب ايها الدكتور · فانحنى جيلبار وقال اؤمل ان تكون جلالتكم مسرورة بسفرها فاجاب الملك كل السرور ثم التفت الى المسيو بوفو الذي كان يسير على فرسه الى جانبه وقال بصوت عالٍ ليسمعه الجميع اذا كنا مسرعين في السير فلنسر اكثر بطئاً حتى لا يتعب الشعب · فاجاب المسيو بوفو لا نقطع الآن ياذا الجلال بهذا السير الا ميلاً واحداً في كل ساعة

وكان الشعب قد سمع كلام الملك فازداد تحمساً

اما بيلو فاقترب من الدكتور وقال له حقاً ان الملك رجل كريم

فسمع الملك هذا الكلام هو ورجال حاشيته فضحكوا جميعاً اما الملك فانه ابتسم ابتساماً خفيفاً وقال يعجبني هذا المديح

فسمع بيلو هذا الكلام فالتفت الى الملك وقال حقه ان يعجبك ياذا الجلال لانني لا اقوله لكل الناس

وبذلك دخل بيلو في الحديث مع الملك

اما الملك فاصبح همه المحافظة على المهابة الملكية وعلى رضى هذا الرجل معاً لانه كان يرى انه ذو تاثير على الشعب · فقال بلطفٍ · كلامك هذا يزيد سروري

فاعجب بيلو وبيتو لكلام الملك فاخذا يصيحان قائلين : ليحيَ الملك · ليحيَ ابو الفرنسويين

وكان الملك لم يعتد بعد ان يُسمى ملك الفرنسويين بل كان يُسمى ملك فرنسا وبين

التسميتين فرق لا يخفى

وما زال الموكب سائرًا حتى صارت الساعة الثانية بعد الظهر فوصل الى صفوف من الحرس الوطني اقيمت في الطريق للتسليم على الملك وكان هذا الحرس الوطني جيشًا قد نُظم بامر جديد وولي الجنرال لافاييت قيادته (١)

وكان هذا الجنرال محبوبًا الى الشعب الباريزي وذا سلطة عظيمة عليه فكان الشعب يهتف بملء فمه ليحيَ لا فاييت ليحيَ لا فاييت

ومما سرَّ لويس السادس عشر المسكين انه سمع الشعب يهتف ليحيَ الملك بقدر ما كان يهتف ليحيَ لافاييت

ولكن هذه نعمة لا تدوم للملك لانه سيأتي يوم لا ينادون صوتًا واحدًا ليحيَ الملك حتى ينادوا عشرين مرة ليحيَ لا فاييت

وكانت مقابلة الملك للجنرال لافاييت حسنة فان الجنرال استقبله خافضًا سيفه والملك احسن مجاملته



(١) لافاييت — هو المركيز دي لافاييت المارشال الفرنسوي الشهير الذي كان رفيق واشنطون في تحرير اميركا واليه ينسب اكثر الفضل في مداخلة فرنسا وتاييدها للولايات المتحدة في ذلك الزمان . ولد في سنة ١٧٥٧ وربته جدته لابيه . وفي سنة ١٧٧٦ قرأ اخبار الحرب بين سكان الولايات المتحدة والانكليز كما يحاربهم البوير الآن وكان لافاييت غنيًا لانه كان يملك ايرادًا سنويًا قدره ١٢٠ الف جنيه فحدثته نفسه ان ينصر الضعفاء على الاقوياء فسافر سرًا الى انكلترا ومنها كتب كتابًا الى اهله يطلعهم على عزمه ثم سافر بالرغم عنهم الى فيلادلفيا فعرض نفسه على دار الندوة متطوعًا فاجمل الاميركيون وفي مقدمتهم واشنطون استقباله وولوه قيادة احد جيوشهم فحاز اكليل النصر على الجنود الانكليزية مرارًا . وفي خلال الحرب سافر مرتين الى فرنسا واستحث حكومة لويس السادس عشر على المداخلة فتداخلت وارسلت اسطولها وبعض فرق من جندها . وكان الجنرال الانكليزي كورنواليس يسميه « الصبي » لحداثة سنه ويقول انه سياسره في وقت قريب . ولكن ما لبث هذا « الصبي » ان ضايق الجنرال وجنده بحركات حربية بديعة حتى حصره في يوركتون والجأه الى التسليم في ١٧ اكتوبر سنة ١٧٨١ فانتهت الحرب بذلك وفاز لافاييت فوزًا مبينًا . ثم عقدت مقدمات الصلح بين انكلترا والولايات المتحدة في فرساليا في ٢٠ يناير

وفيما كان الملك يستقبل لافاييت مدّ يلو نظره فابصر قبعة الملك وعليها شعاره الملكي وهو « شريطة » بيضاء فالتفت الى جيلبار وسأله باستغراب لماذا ايها الدكتور لا يحمل الملك « الشريطة » الوطنية وهي المثلثة الالوان

فاجاب جيلبار لان « الشريطة » البيضاء شعار الملك وهو لا يعلم رسمياً ان الفرنسويين اتخذوا لهم شعارًا وطنياً غيرها وفضلاً عن ذلك فان « الشريطة » البيضاء قد كللت بالنصر والامجاد في ساحة القتال منذ قرون عديدة واما شريطتكم المثلثة الالوان فماذا صنعت الى الآن حتى يحملها الملك

فاجاب يلو كيف تقول ذلك ايها الدكتور انسيتَ انها فتحت الباستيل

فاستغرب الدكتور هذا الجواب البديهي القوي وقال احسنت واصبت يا يلو ثم سكت الدكتور

وبينما كان الموكب سائرًا وقف على حين بغتة . ذلك ان حاكم مدينة باريز كان ينتظر الملك عند ساحة تدعى ساحة الملكة قرب الشان اليزه وبازائه اثنان من اعضاء المجلس البلدي يحملان بعناء طبقاً كبيرًا احمر اللون عليه مفتاحان كبيران هما مفتاحا بابي

سنة ١٧٨٣ وهو الصلح الذي انال الولايات المتحدة الاستقلال . فارتفع شان لافاييت في اميركا وفرنسا ارتفاعاً عظيماً واصبح واشنطون صديقاً حميماً له . وقد نصب له الاميركيون التماثيل في بلادهم وفي فرنسا لانه كان احد العوامل الكبيرة في تحريرهم

ثم عاد لافاييت الى فرنسا فاصبح اشهر رجل فيها واحبه الشعب حباً عظيماً . وكان مشهورًا بارائه الحرة مع كونه من طبقة الاشراف فاسخط ذلك البلاط عليه . فلم يهمه سخط البلاط لان كل الشعب كان متعلقاً به . ولما نُظم جند الحرس الوطني الجديد في ذلك الزمان عُين قائدًا له باجماع الآراء . وهو يقابل الملك الآن بصفته قائدًا لهذا الجند وسيرد في ما يلي تتمة ترجمة هذا الرجل الكبير

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان الاميركيين ذكروا في هاتين السنتين خدم لافاييت الماضية فقرروا انشاء تمثال له في باريز وضربوا وساماً خصوصياً سموه « ريال لا فاييت » واهدوه الى رئيس الجمهورية الفرنسوية في الشهر الماضي فسلمه اليه سفير اميركا في باريز بالنيابة عن المستر ماكنلي . ومنذ ايام لافاييت الى اليوم والصداقة شديدة العرى بين فرنسا والولايات المتحدة

باريز من ايام الملك هنري الرابع

فوقف الجمع وانصت الناس لهذا المشهد الرسمي · فتقدم حاكم باريز وتلا خطاباً رحب فيه بالملك

وكان الحاكم هو العالم بالي (١) الفلكي وفحوى خطابه مديح الملك والثناء على ملكه منذ تولية تيرغو ازمة الحكومة · ولم يكن فيه شيء يجرح الملك الا كلمة كانت في صدرهذا الخطاب كالصاعقة في شدتها وهي « مولاي اقدم لجلالتكم مفاتيح مدينة باريز الجميلة · وهي المفاتيح التي قُدمت الى هنري الرابع حين دخوله اليها · انما هنري الرابع كان هو الذي قوي على شعبه اما الآن فالشعب هو الذي قوي على ملكه »

فاحمر وجه الملك لهذا الكلام ولكنه مع ذلك اشار براسه دلالة على رضاه وهو يقول بنفسه لو كانت الملكة الآن مكاني لما كانت تجيب هذا الفلكي البارد بما ساجيب به

ولما انتهى بالي من الخطابة اجاب الملك جواباً لم يشر فيه الى شيء بل قال انه مسرور كل السرور بالاستقبال الجميل الذي يستقبله الباريزيون به

واما تلك الكلمة الشديدة فلوضعها في خطاب بالي نكتة لا بأس بايرادها (٢)



(١) العالم باليي الذي كان حاكما لمدينة باريز يوم عودة الملك اليها بعد فتح الباستيل · وكان قبل ذلك رئيساً للمجمع الوطني كما مرّ في الجزء الاول راجع هناك ترجمة حياته

(٢) الكلمة القوية — قبل خروج باليي لاستقبال الملك كان يتنزه مع بعض اعضاء المجلس البلدي فقال لهم ان المفاتيح التي سنأخذها للملك ثقيلة جداً وهل تحسبون انني ساعود بها · فسأله احدهم وماذا تصنع بها اذاً فقال القيها على الارض واستريح منها · فاجاب العضو اياك وهذا الامر فانها ثمينة لانها من عهد الملك هنري الرابع · وكان باليي قد كتب خطابه فلما سمع كلمة هنري الرابع حضره خاطر فتناول نسخة خطابه من جيبه ووضع في صدره العبارة التي وردت آنفاً وهي « مولاي اقدم لجلالتكم مفاتيح مدينة باريز الجميلة · وهي المفاتيح التي قدمت لهنري الرابع حين دخوله اليها · انما هنري الرابع كان هو الذي قوي على شعبه اما الآن فالشعب هو الذي قوي على ملكه » ذلك ان هنري الرابع حصر باريز وافتتحها عنوة اما الملك لويس السادس عشر فالشعب يأتي به الى باريز عنوة·

وبعد هذا الخطاب استأنف الموكب السير وكان الدكتور جيلبار لا يزال مع بيلو سائرين بازاء نافذة مركبة الملك

ولما وصلت المركبة الى ساحة لويس الخامس عشر سُمع على حين بغتة بين حركة الجمع صوت انفجار خفيف ونُظر شيء قليل من الدخان صاعدًا في الهواء . وفي هذا الوقت نفسه شعر جيلبار بصدمة شديدة على صدره ورأى امرأة كانت واقفة امامه وجهًا لوجه تسقط على الارض مجروحة برصاصة اصابت كتفها

فاصفر وجه جيلبار ونظر الى صدره فرأى على احد ازراره النحاسية الضخمة آثار الرصاصة . ذلك ان الدخان الذي صعد كان دخان رصاصة اطلقت على نافذة مركبة الملك فاصابت زرّ الدكتور جيلبار النحاسي فلم تستطع ان تنفذه فارتدت الى امرأة كانت واقفة بازائه وجرحتها

اما الملك فانه لما سمع صوت الانفجار اطل من نافذته ليعلم السبب ثم نظر الى الدكتور جيلبار وقال ضاحكاً اظنهم يطلقون البارود احتفالاً بي . فابتسم جيلبار وهو لا يزال اصفر اللون وقال نعم ياذا الجلال

ولكن من اطلق تلك الرصاصة على الملك ؟ ومن اي جهة اطلقت ؟ . امران بقيا مجهولين اذ لم يبحث احد عن ذلك في ذلك الزمان

وما زال الموكب سائرًا حتى وصل الى ساحة المجلس البلدي وكان مرسوماً على صدره باحرف ضخمة هذه العبارة

« الى لويس السادس عشر ابي الفرنسويين وملك شعب حر »

فلما قرأ الناس هذه العبارة هتفوا هتافاً بلغ عنان السماء . فسأل بيلو بيتو عن سبب الهتاف فقرأ له بيتو هذه العبارة . فتحمس بيلو وصاح احذر ان تكون قد خدعتك عيناك . واقرأ جيدًا . هل المجلس البلدي كتب على جدار المنزل ان الشعب حر . فقال بيتو نعم فصاح بيلو وكان لم ينسَ بعد حديث الشعار مع الدكتور . اذا كان الشعب حرًا فله الحق بان يقدم للملك شعاره

وقد قال ديماس ان الناس نسوا خطاب بالبي بل نسوا كل مؤلفاته ولم يبق منه اثر في اذهانهم الا هذه العبارة الشديدة التي ثبتت كانها حُفرت فيها باحرف من نار . والذي روى هذه الرواية عن هذه العبارة هو بالبي نفسه في تاريخ حياته الذي كتبه قبل مماته

قال هذا ثم وثب الى مدخل المجلس البلدي ٠ وكان الملك قد نزل من المركبة وارتقى الدرج ليدخل الى المجلس ٠ فصاح بيلو ٠ مولاي انك رأيت في ساحة « الجسر الجديد » تمثال الملك هنري الرابع مزيناً بالشعار الوطني ٠ فقال الملك نعم رايته ٠ فقال بيلو ولماذا جلالتك لا تزين قبعتك ايضاً بالشعار الوطني

فانصت الجميع عند ذلك واجاب الملك مضطرباً نعم ٠٠٠ سافعل ذلك ٠٠ لو كان لديَّ منه

فرفع بيلو حينئذٍ يده وفيها قطعة من الشعار الوطني وهي « شريطة » مثلثة الالوان كما مرَّ بنا وقال للملك ٠ خذ يامولاي اني باسم الشعب اقدم لك شعاره لتضعه مكان شعارك

فنظر الملك الى باليي حاكم باريز فقال باليي ٠ ان هذا الشعار يامولاي رمز الى ان حامله فرنسوي لا الى شيء آخر ٠ فمد الملك يده ليتناوله وقال ٠ اذا كان هذا هكذا فانني احمله بسرور ٠ ثم رفع شعاره الملكي الابيض عن قبعته ووضع مكانه شعار الشعب

فارتفع هتاف تلك الالوف من كل جانب وساد الهرج والمرج ابتهاجاً بصنع الملك

اما الدكتور جيلبار فحول وجهه عن ذلك المشهد مشمئزاً ومستاء لانه راى الشعب يمشي الى غرضه بخطى واسعة والملك لا يتأنى في مقاومته

وكان الشعب يصرخ « ليحيى الملك ٠ ليحيى الملك» فقال الدكتور في نفسه ٠ لم يبقَ ملك بعد الآن

ثم مد الجند سيوفهم من مدخل المجلس البلدي الى الداخل فدخل الملك تحت سماء بارقة من السيوف فتنهد جيلبار وقال ٠ ماهذا بقوس نصر ولكنه رمز الى سلطة الشعب الهائلة ٠ ماذا تقول الملكة اذا علمت بهذا

الفصل السابع

(ما كانت تصنع الملكة في فرساليا والملك في باريز)

واستقبل اعضاء المجلس البلدي الملك في داخل المجلس استقبالاً شائقاً ٠ فانهم لقبوه « واهب الحرية» فاظهر الملك لهم سروره بمقابلتهم ثم خرج من المجلس

فوجد الملك الشعب يداعب خيل مركبته و يزينها مع المركبة بقطع من الشعار الوطني حتى اصبحت كانها مغطاة بالحمائل المثلثة الالوان ٠ فركب الملك المركبة ضاحكاً

وكان الدكتور جيلبار واقفاً حينئذٍ في احدى نوافذ المجلس البلدي ولم يرافق الملك لانه علم انه قد اصبح في امن من الشعب . ولكن الملك لم يكد يركب مركبته حتى نظر جيلبار فارساً من فرسان البلاط يتقدم على جواده من قصر المجلس فعلم جيلبار ان هذا الفارس رسول من الملكة

وكان هذا الفارس هو الكونت دي شارني

فلما وصل الى مركبة الملك سلم باحترام فساله الملك كيف تركت الملكة قال تركتها بخير ولكنها مشغولة البال بشان جلالتكم . قال فلتطمئن بالاً فكل شيء انقضى على احسن ما يرام . ثم نظر الكونت الى ما حوله فابصر الجنرال لافاييت فابتسم له الجنرال فتقدم منه الكونت مسلماً فمد له الجنرال يده مصافحاً

فكانت هذه الحركة كافية لانزال فارس الملك في اعلى منزلة من الشعب فهتف الشعب للفارس « ليحيى الملك » ثم حمله مع جواده وساروا به كالبحر الزاخر

واما قدوم الكونت دي شارني من فرساليا الى باريز لمقابلة الملك فسببه في ما يلي

كان الدكتور جيلبار ما وصل بالملك الى قرب باريز حتى انفذ الى الملكة ثلاثة رسل يبلغها معهم سلامة الملك وراحته . فاحدثت هذه الاخبار سروراً حقيقياً في نفس الملكة . وفيما كانت تظهر سرورها بذلك امام حاشيتها في ذلك اليوم قال احد مقربيها لها من ادرانا ياسيدتي اذا كانت هذه الاخبار حقيقية . فنظرت اليه الملكة وقالت . اما هذا فكونوا على ثقة منه لان الذي يرسل الينا الاخبار من اصدقائنا

فقالت البرنسس دي لامبال ومن عساه يكون هذا الصديق ياسيدتي . فقالت الملكة هو الدكتور جيلبار طبيب الملك الجديد

وكانت الكونتس اندري حاضرة . فلما سمعت الملكة تقول عن الدكتور انه من اصدقائها وثبت كابوة ثائرة وقالت : جيلبار صديق جلالتك

فبهت الحاضرون وذكرت الملكة حينئذٍ انها جرحت الكونتس في ما قالته . فنظرت الى لاندري فرأت عينيها متقدتين غيظاً وحنقاً وهي صفراء اللون كانها من الاموات . ولكن الملكة نظرت في الوقت ذاته الكونت دي شارني قادماً باتفاق غريب فقالت بهدوء كانها تدعو بذلك اندري الى الانتباه وكظم ما في نفسها : جاء الكونت دي شارني

فدخل الكونت . وكان قد رأى من بعيد اضطراب زوجته اندري واصفرارها وسمع ما قالته عن جيلبار . فلما دخل سالت الملكة اندري . وهل يغيظك ياعزيزتي ان يكون

الدكتور جيلبار من اصدقائنا

فعضت اندري شفتيها • ودنا منها الكونت زوجها بعد التسليم والتحية وسالها ما بك ايتها الكونتس فاني اراك صفراء مضطربة• فسكتت اندري • فقال الكونت وقد سمعت اعتراضك على صداقة جيلبار فهل لك ما تقولينه عن فضل هذا الرجل وادبه

وكان قلب اندري في خلال هذا الكلام يقطر دماً فكرهت الملكة ان تطيل عذابها فقالت • اظن ان الكونتس لم تعترض على صداقتنا للدكتور الا لانها رأتنا نعتبره من اصدقائنا مع حداثة معرفتنا به • اليس كذلك ايتها الكونتس

فاجابت الكونتس بهدوء وتردد • نعم •• نعم هذا هو السبب

فقال الكونت دي شارني • لاندري • هذا لا يقنعني ولا بد ان يكون لك سبب آخر

فلذعت الغيرة هنا قلب الملكة • فبعد ان كانت معذّبة اصبحت معذِّبة • فنظرت الى الكونت وقالت بشيء من السخط ما لك عدتَ الى هذا الموضوع ايها الكونت كانك لم تعتقد بصحة التعليل الذي عللته • فاجفل شارني لهذا الانقلاب واجاب مولاتي ••• فقطعت الملكة عليه الكلام قائلة • فهمتُ سبب قلقك على الكونتس انك غيور وحقك ان تغار كما اغار انا الآن على الملك في باريز • فحاول شارني الكلام مرة ثانية فقطعت الملكة بغضب شديد كلامه للمرة الثانية وصاحت : لماذا تريد الاعتذار عن غيرتك وهل الغيرة عار • كن غيورًا بقدر ما تشاء فان الغيرة دليل على الحب

فلبث جميع الحاضرين صامتين مبهوتين بازاء غضب الملكة اما شارني فاطرق الى الارض واما اندري زوجته فانها كانت تعض شفتيها مدهوشة وخائفة

مدهوشة مما كانت تسمعه • وخائفة مما خُيل لها انها فهمته

ولما سكتت الملكة انحنى شارني باحترام وقال • سمعت جلالتك تظهرين خوفك على الملك لوجوده في باريز فانا ذاهب لحراسة جلالته فاما ان اعود به سالمًا واما ان لا اعود • ثم زاد في الانحناء وهم بالخروج

فوثبت اندري اليه وحالت بينه وبين الباب قائلة لا ادعك تذهب وارفق بنفسك

فاستشاطت الملكة هنا غضباً وصاحت بها • من اين لك ايتها السيدة ان تقومي هنا مقام الملكة فتامري وتنهي • ومتى جاز لك اذا كان المسيو شارني يريد الذهاب للدفاع

عن الملك ان نُقعديه عن هذا الواجب

فسكتت اندري واطرقت الى الارض · اما شارني فقال · اعذريها ياسيدتي فانها لا تزال مضطربة الافكار ونحن كلنا فدى جلالة الملك وجلالتك

قال هذا وانحنى باحترام شديد وخرج · و بعد دقيقتين سمعت الملكة وقع حوافر جواده على البلاط وهو ينهب الارض نهباً قاصداً باريز · وما زل حتى وصل الى الملك على ما مرَّ بنا

الفصل الثامن

(عودة الملك)

وصرفت الملكة بقية ذلك النهار منقبضة النفس لما بدأت تشعر به من حب شارني لزوجته وحب زوجته له · وفي المساء كانت مبهوتة في نافذة قصرها واذ دخل عليها بعض الحراس ركضاً صائحين قد جاء رسول قدجاء رسول · فقامت الملكة مدهوشة وسالت عن الرسول فادخلوه اليها فسالته فابلغها ان الملك في عافية وسلامة وانه يعود بعد نصف ساعة الى فرساليا · ففرحت الملكة فرحاً حقيقيا لان حب الملك كان عندها فوق كل حب اذ هو ابو اولادها وشريكها في نعمتها

ولم تنقضِ نصف ساعة حتى ظهرت المشاعل تتقدم موكب الملك على طريق فرساليا· فانتظرته الملكة على سلم القصر وقلبها يرقص فرحاً بلقائه سالمًا · ولما وصل اليها انطرحت الملكة بين ذراعيه باكية وضمته مرارًا الى صدرها لانها تحققت خلاصه من الخطر الذي كان امامه

وبينما كان الملك يقبل ابنه صاح به الولد ما هذا الذي في قبعتك يا ابتِ · فالتفتت الملكة فابصرت الشعار المثلث الالوان الذي وضعه الملك في قبعته مكان الشعار الملكي الابيض · فصاحت الملكة ما هذا انزعه انزعه · ثم مدت يدها واخذت الشعار المثلث الالوان باطراف اصابعها والقته بعيداً على السلم تحت ممر الاقدام فداسه الصادرون والواردون

وبذلك اهانت الملكة الشعب باسره · ولكنها اهانة انتقم لها الشعب بعد ذلك انتقاماً هائلاً

اما الملك فانه عند اخذ الملكة الشعار المثلث الالوان من قبعته انحنى على ابنته ليقبلها

والحقيقة ان انحناءه كان ليخفي ما بدا في وجهه من آثار الخجل والانفعال

وقد شغل لقاء الملك الملكة عن الالتفات الى شارني الذي كان يصحبه . ولكن شارني لم يشغله شيء عند الوصول عن التقدم من زوجته اندري ومصافحتها بهز يدها مصافحة شديدة فاتت الملكة

غير ان الملكة ما لبثت ان بحثت بعينيها عن الكونت دي شارني فوجدته هادئاً رزيناً فقالت له شكراً لك ايها الكونت فانك انجزت وعدك واتيتني بالملك سالماً

فسالها الملك من تخاطبين . فاجابت بشجاعة وشهامة . اخاطب الكونت دي شارني.

فقال الملك نعم لقد قاسى شارني عذاباً شديداً حتى وصل الي في وسط الزحام . وجيلبار كذلك . ولكن اين هو فانني لا اراه

فغيرت الملكة الحديث في الحال وقالت لشارني. تتعشى الليلة على مائدتنا ايها الكونت انت والكونتس دي شارني . قالت ذلك مسرورة ولكن ما لبث ان انقلب سرورها كدراً لما ابصرت شارني قد سره قولها ان ياتي للعشاء « مع زوجته »

الفصل التاسع

(اهوال الثورة)

قلنا ان الشعب كان نصير ناكار وكان يدعوه « فاضل جنيف » فلما فُصل خلفه فولون فابغضه الشعب ونسبوا اليه اموراً جمة . منها انه قال ان الشعب لا ينبغي ان يجوع اذ لديه كثير من التبن والقش لسد رمقه

لذلك كان الشعب شديد السخط عليه . ولكن في ذات يوم شاع خبر موته واحتفل الباريزيون بجنازته فمشى الشعب فيها وكاد يهجم على النعش ليأخذ فولون منه ويهينه مقابلة اهانته للشعب . فصعد بيلو على حجر عالٍ هناك وخطب في الجمع مظهراً وجوب احترام الاموات فانثنى الشعب عن عزمه وترك الميت وشانه

ولكن ما انقضت بضعة ايام على هذه الحادثة حتى ركض في ذات يوم بيتو يطلب بيلو على عجل فوجده في المجلس البلدي. فساله بيلو الخبر لما رآه من سرعته ولهفته . فقال بيتو لدي خبر عظيم لم يسمع بمثله احد . قال ماذا . قال وجدوا فولون . قال اي فولون . قال فولون الذي خلف ناكار ذلك الرجل اللئيم الذي قال ان الشعب يسد رمقه بالتبن والقش . فقال بيلو ضاحكاً دع عنك هذا فاني في ذلك اليوم سرت بنفسي في جنازته .

قال وانا ايضاً نظرته اليوم بعيني · قال ويحك وكيف ذلك · قال الحقيقة ان هذا الرجل اشاع انه مات فرارًا من غضب الشعب الذي يسخط عليه وقد وشى به اليوم احد اتباعه ويدعى سان جان · فقال بيلو فرحاً لخادم يشي بسيده · قال بل عافاه الله لانتصاره للشعب فان فولون يستحق كل بلاء ونقمة · فقال بيلو وماذا فعلوا به الآن فقال بينو لقد تجمهر الوف من الشعب يطلبونه لما علموا بوجوده وها هو الآن قادم الى هنا في مركبة مقفلة وقد سبقت انا الخيل فتقدمتها

ولم يكد بينو يتم كلامه حتى وقفت مركبة في ساحة المجلس البلدي وخرج منها فولون مذعورًا خائفاً ومعه حارسان مسلحان · وكان وراء المركبة بعض الفتيان يركضون مع الخيل ويصيحون فولون فولون

ثم ما انقضت على وصول المركبة بضع دقائق حتى بدأت اصوات بعيدة ترتفع ارتفاعاً مخيفاً في الفضاء وسمعت زمجرة كانها زمجرة الاسود القساور في الغابات · ذلك ان الشعب كان قادماً الوفاً الوفاً وهو مسلح بالحراب والفؤوس والرماح يطلب فولون الذي اهانه وجوعه فعلم باليي خطر الموقف فارسل يستدعي الجنرال لافاييت وحض حراس المجلس على التاهب للدفاع · واما فولون فكان يرتعد خوفاً على نفسه

ولما وصلت جماهير الشعب الى باب المجلس اومأ زعماؤها اليها بالدخول من حيث دخل فولون لاخذه فبدأ الناس يضربون جدران المجلس بايديهم واقدامهم وبنادقهم وفؤوسهم وحرابهم حتى ارتجت لذلك اسس المجلس وهم يصرخون بغضب شديد فولون فولون

وكان فولون يستحلف باليي الحاكم وباقي الاعضاء ان يخلصوه وهم يعدونه انهم يبذلون قصارى جهدهم لانقاذه · ولكن الشعب بدا يفرغ صبره ولاسيما لما كان يسمعه من ان اعضاء المجلس قد مهدوا سبيل الفرار من المجلس لفولون فاخذوا يصيحون انهم سيكسرون الباب او يحرقون المجلس ويدخلون فاوجس باليي خيفة من عزمهم هذا فقال لفولون اظهر نفسك من النافذة لئلا يحسبوا اننا هربناك · فتقدم فولون من النافذة وهو خائر العزم من الضعف والخوف

ولكن ما ظهر وجهه لتلك الالوف المؤلفة التي كانها موج البحر الزاخر حتى اندفعوا اندفاع التيار الى المجلس ففتحوا الباب عنوة ودخلوا لاخذ فولون · فصاح باليي بجنود المكان ان تستعد ثم تقدم بنفسه من الهاجمين واخذ يعظهم ويخطب فيهم فاستطاع بجلده وصبره ان يقنعهم بوجوب محاكمة فولون اولاً فان كان مذنباً عوقب اشد عقاب

فارتضى الشعب ذلك وعاد عن المجلس · واتفق في تلك الساعة مجيء الجنرال لافايت فافسحوا له مجالاً فايد الجنرال قول باليي من وجوب محاكمة فولون وامر باخذه الى السجن اولاً قبل المحاكمة

فلما درى الشعب بذلك طار فرحاً لا ابتهاجاً بسجن فولون بل ابتهاجاً بانه سيسلم اليهم حين اخذه الى السجن · وهكذا جرى · فان الرجل ما اودع في مركبة ليؤخذ الى سجنه حتى هجم الشعب الوفاً على حراسه ففرقوهم وتناولوا فولون كما تتناول الافعى عصفوراً صغيراً وقصدوا به وتد المصباح ليشنقوه به

فحاول باليي ولافاييت و بيلو الوصول اليه لانقاذه ولكن ماذا يصنع ثلاثة رجال مع عشرة الاف رجل · ولما وصل الشعب بفولون الى المصباح علق بوتده حبلاً و وضعه في عنق فولون وشنقه به

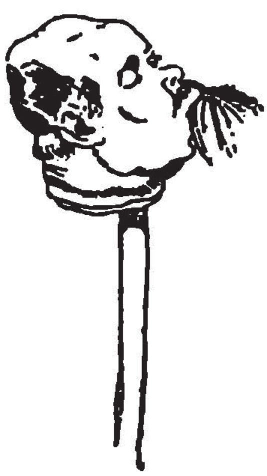
ومن سوء حظ هذا المسكين ان الحبل كان مهترئاً فانقطع فوقع فولون على الارض فانكسرت ساقه

فضحك الناس من وقوعه فاعادوا ربط الحبل ورفعوه به وهم يصرخون و يضحكون ·

وكان فولون ضخم الجثة والحبل قديماً فانقطع مرة ثانية وسقط فولون على الارض بين حي وميت

فاحضروا حينئذٍ حبلاً جديداً وشدوه به ولبثوا يرقصون حول جثته و ينشدون و يصرخون

ولما اسلم الروح قطعوه قطعاً قطعاً فرفعوا الراس على رمح (١) واخذوا يلعبون بالاعضاء الاخرى



(١) فولون — ان المجلة التي نقلنا عنها رسم الماجور دي لوسم الذي وضعناه في « المثلث المائل » من الجزء الاول من الرواية ترتاب في ما اذا كان هذا الراس راس الماجور دي لوسم او راس فولون · ولكن يُرجح انه راس فولون لان الشعب بعد قتله وضع في فم الراس قشاً كما ترى في الرسم لان فولون كان يقول ان الشعب يكفيه ان ياكل قشاً · ولذلك نشرنا هنا هذا الرسم

فحول باليي ولافاييت و بيلو وجوهم عن هذه المناظر البربرية ثم عادوا ونفوسهم صغيرة من جراء هذه الفظائع التي ما استطاعوا منعها

ولكن الشعب ما كاد ينتهي من اللعب باشلاء فولون حتى علت ضوضاؤه مرة ثانيــة وترك تلك الاشلاء وسار لاستقبال فريسة اخرى كانت قادمة الى المجلس البلدي

ذلك ان برتيه صهر فولون وشريكه في منصبه تجمهر عليه الشعب تخوفاً من ايصال اذاهم اليه ارسلوه الى المجلس . وكان قادماً في مركبة وهو ثابت الجاش ساكن البال يحادث عضواً من اعضاء المجلس ارسل لاحضاره . وكان الشعب حول مركبته يهينه ويسميه مجوع الامة و يتهدده وهو ساكت يبتسم للعضو الذي الى جانبه

فاستخط هذا الهدوء الشعب فهجم منه اثنان على مركبته وصوبا حربتين الى صدره فلم يلتفت اليها برتيه بل بقي ساكناً يخاطب رفيقه

فازداد الشعب سخطاً وكانوا قد قربوا ساعتئذٍ من المجلس البلدي والتقوا بالشعب الذي قتل فولون فاخذوا الرمح الذي عليه الرأس وادنوا شفتيه من شفتي برتيه

فعبس برتيه بثبات جاش وظل سائراً في طريقه دون ان يلتفت اليهم . وكانت الجماهير حول مركبته كانها البحر الزاخر وصياح الناس يطبق عنان السماء

ثم وصلت المركبة الى باب المجلس البلدي فنزل منها برتيه وسط زحام شديد وقاسى عناء كثيراً في الدخول الى المجلس

ولما دخل اصفر وجه لافاييت و باليي و بيلو لانهم رأوا ان مسئولية جديدة قد القيت عليهم بعد مسئولية فولون

اما الشعب فلما غابت عنه فريسته بين جدران المجلس اخذ يصيح ويصخب طلباً لها . واشتد به الهياج فازداد صياحاً

فنزل اليهم باليي واسترعى سماعهم فكانوا يصرخون كلما طلب اليهم ان يصغوا وذلك لكي لا يتركوا له مجالاً للكلام لانهم كانوا يعرفون ما كان يريد ان يقوله . فعاد باليي خائباً فنزل اليهم الجنرال لافاييت بنفسه ودس نفسه بين صفوفهم واخذ يحثهم على السكينة و يستعطفهم و يصافحهم على سبيل الاستمالة ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً ولم يسمع له احد كلمة فجثا امامهم على بلاط درج المجلس والتمس منهم باسم الامة ان لا يدنسوها بعمل فظيع ثان وان لا ينجسوا الثورة بتلك الفظائع . فلما رأوه يلح هذا الالحاح تهدده بعضهم ورفعوا سلاحهم عليه . فنهض لافاييت وهجم الى الامام قائلاً اضربوا ان قدرتم . فخفضوا

سلاحهم وعاد لافاييت خائباً ايضاً

وبذلك خرج قياد الشعب من يدي هذين الرجلين • فان باليي الشيخ ولافاييت الشاب اثارا الشعب وحسبا انهما يبقيان متسلطين عليه يصرفان قوته كيفما شاء اونسيا ان الشعب كالمرأة يغير سريعاً قلبه وارادته

وخاف لافاييت ان يبقى بزتيه في المجلس فيشدد الشعب الحصر عليه فامر بنقله الى سجن الاباي وكان الرجل لا يزال ثابت الجاش هادئ البال فاركبوه المركبة للمسير به • ولكنه ما ظهر للشعب حتى ارتفع هتاف غريب طبق العنان ومدت الايدي والآلات المعكوفة الى ذلك المسكين فتناولته وفرقت حراسه في بضع ثوانٍ وسار الناس به الوفاً الوفاً كزوبعة هائلة نحو المصباح الذي شنق فيه فولون

فلما ابصر بيلو هذا المشهد اندفع يركض الى الفريسة لعله يستطيع انقاذها فوصل الى برتيه واخذ يصيح بالناس ان يتركوه حتى يحاكم فكان جواب الناس لكمه ولطمه وهم في عراك وهياج يعجز القلم عن وصفها • ولما بلغوا المصباح نظر برتيه الى فوقه فابصر حبلاً مربوطاً فيه

فبوثبة واحدة افلت من قابضيه وخطف حربة من احد الواقفين امامه واخذ يطعن بها الذين حوله • فارتفعت حينئذ مئات من الحراب والسيوف واغمدت في جسمه دفعة واحدة فسقط برتيه على الارض وخرجت روحه من جسمه بخروج دمه من جروحه الكثيرة

وحينئذٍ نُظر منظر ترتعد له الفرائص • فان رجلاً من الواقفين مدّ يده من جرحٍ في صدر القتيل وقبض بيده على قلبه وانتشله من جوفه وهو حارٌ يقطر دماً • فجعل بيلو يلطم راسه وينتف شعره اشمئزازاً من هذا المنظر الهائل • ثم وضع ذلك الرجل القلب على راس سيف وسار به الى المجلس البلدي فوضعه على مائدة الاعضاء

فلما رآه لافاييت تناول سيفه وكسره على ركبته ورمى به الى الناس وهو يكاد يبكي من تلك الفظائع والاهوال

اما بيلو فكان لا يزال ملقى على حجر هناك فاتاه بيتو وسار به الى شاطئ النهر القريب بعيداً عن اعين الناس

الفصل العاشر

(بيلو بدأ يكره الثورة)

ومنذ هذا الحين بدأ بيلو يرى ان طريق الثورة ليست كلها مفروشة زهراً ٠ وقد ذكره منظر النهر قريته وسكينتها ورغد العيش فيها فقام في نفسه في الحال ان يعود الى مزرعته فاشار الى بيتو ان يتبعه ثم سار لمقابلة الدكتور جيلبار قبل سفره

وكان نا كار قد عاد يومئذٍ الى الوزارة واتخذ الدكتور جيلبار عضداً له ٠ فزاره بيلو و بيتو في فرساليا وقال له بيلو انه عائد الى مزرعته

فنظر اليه الدكتور باسماً وساله لماذا تترك باريز العلك سئمت فظائع الثورة ٠ فقال الحق اقول لك ايها الدكتور انني لم اعد اطيق هذه الاهوال ٠ واخشى انني اذا بقيت ان اعوّد نفسي القتل والذبح ايضاً

فقال الدكتور وكيف تعود نفسك القتل والذبح فقال بيلو بحدة نعم فانني اذا بقيت فان نفسي تحدثني بان اقتل كل رجل يقتل واذبح كل رجل يذبح و بذلك اكون قد صنعت شرّاً ٠ فالاجدر بي ان اعود الى مزرعتي

فحدجه الدكتور بنظره طويلاً ثم قال بل الاجدر بك ان تبقى مقيماً في باريز ٠ فقال بيلو ولماذا فقال الدكتو اسمع لابرهن لك وجوب ذلك

انا مثلك قد بدأت اكره الفظائع والاهوال ولكني لا ارى من الحكمة ان نغادر موقفنا ٠ فان صانعي الشر في هذه الايام كثيرون وصانعي الخير قليلون ٠ فماذا يحل بباريز اذا تركها كل الصالحين الذين يستطيعون صنع الخير و بقيت بين ايدي الاشرار الذين لا همَّ لهم الاصنع الشر ٠ فابقَ يا بيلو فان بقاءك نافع ٠ خذ مثلاً لذلك حادثة فولون و برتيه ٠ فانك خاطرت بنفسك لانقاذهما ولكن لو كان معك مائة شخص او مائتان بمبداءك وافكارك اما كنتم فزتم بذلك ٠ فابقَ ولا تضجر فان ضجر امثالنا الآن يجر على الامة ويلات عظيمة

فقال بيلو وما الفائدة من بقائنا اذا كنا لا نستطع منع حدوث الشر ٠ فقال جيلبار بلى نستطيع منع حدوثه بما في الامكان ٠ واعلم قبل كل شيء انه يوجد الآن ايدٍ سرية تحرك الشعب نحو الشر فينبغي ان يكون مقابل هذه الايدي السرية ايدٍ اخرى تمنع صنع ذلك الشر ٠ وان سالت ما هي هذه الايدي اريتك هذا الكتاب المطبوع

ثم قدم اليه ورقة مطبوعة وقال له اقرأ ما فيها ٠ فقال بيلو انت تعلم انني لا احسن

القراءة • قال فاجعل بيتو يقرأها لك فمد بيتو عنقه ليقرأ فلم يحسن ذاك فقال ما هذا الكلام بفرنسوي ولا لاتيني ولا يوناني • فقال جيلبار كلا ولكنه انكليزي • فقال بيتو مفتخرًا اما انا فلا اعرف اللغة الانكليزية • فاجاب الدكتور اما انا فاعرفها • انظر يابيتو هذا التوقيع الذي في ذيل الكتاب فنظر بيتو فوجد هذه الكلمة « بِيتْ » فقال ما معنى كلمة « بِيتْ » فقال جيلبار اصغيا لافسر لكما هذه الكلمة

الفصل الحادي عشر

(بِيتْ)

ثم استانف جيلبار الكلام قائلاً • ان بيت هو ابن بيت

فقال بيتو اذًا يوجد بيت اول و بيت ثانٍ كما في التوراة

فقال جيلبار نعم • اما بيت الاول اي الذي هو والد بيت الثاني فقد كان عدو فرنسا اللدود فانه صرف ٣٠ سنة في مقاومتها وجعل محور سياسته اسقاطها واذلالها فابث ياخذ منها المستعمرة بعد المستعمرة سواء في الهند وكندا وغيرها حتى اذا كاد يخربها مات واثار عليها ابنه بيت الحالي (١) وهو الآن شاب عمره ٣٠ سنة فقط وقد انقضى عليه سبع سنوات يدير سياسة انكلترا • فيكون قد استلم ادارتها وهو في الثالثة والعشرين من العمر • وقد اقتفى في سياسته اثار ابيه ومن يشابه ابه فما ظلم



(١) بيت — يوجد سياسيان انكليزيان بهذا الاسم • الاول وليم بيت وهو اللورد شاتام السياسي الانكليزي الشهير الذي كان خصم الولايات المتحدة في حربها مع انكلترا • ولد سنة ١٧٠٨ وتوفي سنة ١٧٧٨ • ويكفي لمعرفة اخلاقه وسياسته ان نقرأ هذا الفصل • والثاني هو ابنه وليم بيت الذي كان خصم فرنسا والثورة الفرنسوية وقد جعل اوربا تحمل عليها ٣ مرات انتقامًا منها لمساعدتها الولايات المتحدة كما ورد في صفحة ١٧ عند الكلام على لا فاييت • ولد سنة ١٧٥٩ وتوفي سنة ١٨٠٦ • وكان في مذهب بعض الفرنسويين يدس الدسائس في فرنسا ليزيد نار الثورة اضطرامًا قصد الاضرار بها • لذلك مات ميرابو وهو ينادي في فراش الموت • بيت آه يا بيت ليتني ابقى حيًا لاريك كيف تكون السياسة • وهذا الرسم هو رسم بيت الثاني

فقال بيتو اذا كان عمر بيت الآن ٣٠ سنة فقط فهذا يدل على اننا سنقاسي منه عناء طويلاً

فقال جيلبار نعم وخصوصاً لقوة جرثومة الحياة في هذه العائلة · فان بيت الاول عاش سبعين سنة وقد حدثت له حادثة قبل موته دلت على قوة جرثومة الحياة فيه

ذلك ان بيت كان في سنة ١٧٧٨ على فراش المرض والموت وقد اشار عليه الاطباء بالانقطاع عن كل حركة والا ذهبت حياته · وكان البرلمان الانكليزي يبحث في ذلك الزمان في مسالة الحرب مع الولايات المتحدة · وكان الملك لويس السادس عشر قد اعترف باستقلال هذه الولايات مما اغاظ بيت وانكلترا اشد غيظ · فرات الحكومة الانكليزية ان تقترح في ذلك الحين على الولايات الثائرة عليها انها تعترف باستقلالها على شرط ان تحالفها ضد فرنسا التي كانت تساعدها

فصاح بيلو ولكن هذا اقتراح غير شريف للذي يقترحه وللذي يرضى به

فقال جيلبار باسماً ولكن هذا ما يسمونه سياسة يابيلو وطريقته محبوبة الى السياسيين · ومع ذلك فالولايات المتحدة رفضت هذا الاقتراح بواسطة واشنطون الذي هو اكرم واشرف رجل وُجد في العالم ولولاه لوُجد بين الاميركيين من يشتري استقلال بلاده بذلك الثمن الدنيء

فلما علم بيت الاب بنية الحكومة الانكليزية وكان مطروحاً في فراش المرض والموت كما ذكرت طلب الى ابنه بيت وكان عمره ١٩ سنة فقط ان يسنده ويسير به الى البرلمان · فاستغرب الاعضاء حضوره بينهم · اما هو فانتظر حتى انتهى اللورد ريشمون من الخطابة فارتقى المنبر بعده بخطى مرتجفة وابتدأ الكلام بصوت ضعيف خافت

ولكنه كلما كان يتقدم في الكلام كان صوته ينجلي وعيناه تتقدان بنار الجدال حتى احتدم واصبح كانه عاد الى الشباب · فخطب ثلاث ساعات متوالية خطبة اعجب بها جميع الاعضاء وكلها تهديد ووعيد لفرنسا والولايات المتحدة · وقد حث فيها انكلترا على ان لا تتنازل عن اصغر بقعة من مستعمراتها حرصاً على كرامتها ولو فنيت انكلترا كلها · ثم صاح الحرب الحرب داوموا حرب الولايات المتحدة حتى ننتصر او نموت · ونزل عن منبر الخطابة مغمياً عليه فمات بعد بضعة ايام

فقال بيلو وبيتو مستغربين لله ما اقوى نفس هذا الرجل · فقال الدكتور نعم والابن الآن يقاومنا كما قاومنا الاب · اسمعوا لاقرأ لكم ماجاء في الكتاب الذي رأيتم توقيعه عليه

ثم ادنى الورقة من بيتو وقال له اقرأها فقال بيتو انا لا اعرف الانكليزية فقال جيلبار انظر هذه العبارة (دنت مين ذي مني)

فقال بيلو اراها فما معناها · قال جيلبار معناها موافق لمعنى هذا السطر الثاني الذي فوقها · قال وما معناه · قال معناه « قل لهم ان ينفقوا بلا حساب وان لا يعبأوا بالمال »

فبهت بيلو وبيتو فقال بيلو وما المراد بذلك فقال جيلبار اما فهمتَ بعد · قال بيتو اظنهم يبتاعون اسلحة لمحاربتنا · فقال جيلبار كلا ولكنهم يرشون العامة افساداً لاعمالنا· قال بيلو وكيف يرشون العامة

فقال جيلبار أكنت انت يا بيلو تقتل ديلوناي · أكنت تقتل فلاسل ولوسم · أكنت تشنق فولون وتخرج بيدك قلب برتيه من صدره

فصاح بيلو مشمئزاً معاذ الله وقد سئمت العيش من هذه الامور التي رأيتها

فقال جيلبار عافاك الله وهذا هو الامر الذي يريده اعداؤنا· انهم يسعون في افساد الثورة التي نقوم بها الآن لكي يسأم منها خاصة الامة وافاضلها · ولذلك ينفقون المال جزافاً من غير حساب

فقال بيلو واي فائدة للمستر بيت في رشوة بعض سفلة الشعب لارتكاب الفظائع وجعل افاضل الامة يسئمون هذه الثورة

فضحك جيلبار بهدوء ضحكة دلت على اقتناعه ثم قال · ما ابسط قلبك · انسيت ان المستر بيت هو عدو فرنسا اللدود الذي لا يهنأ له عيش الا اذا افرغ كل جيب فيها وكسر كل بندقية او سيف يتقلده جنودها · فاذا اثار على الامة عامتها وسوقتها فان الامة لا تلبث لسئامتها الثورة أن تدعو جنوداً المانية اوجنوداً انكليزية لنجدتها على القتلة والمعتدين فتدخل الجنود الاجنبية الى بلادنا بحجة اغاثتنا ويكون الغرض الحقيقي من دخولها زيادة اذلالنا وتمزيق شملنا

فقال بيلو وهو مبهوت مفكر وكيف مداواة الحالة الحاضرة · قال جيلبار مداواة الحالة الحاضرة في بقاء افاضل الامة في وسط الثورة ليصرفوا مجراها الى الخير ويمنعوا رجال السوء من ارتكاب الاثم وصنع الشر · ولذلك اكره ترك امثالك باريز يابيلو فابق فيها لتكون لي عصاً تارة اتوكأ عليها وطوراً اضرب بها

فبقي بيلو مبهوتاً · فقال بيتو قد اصاب الدكتور في قوله فهل لديك جواب مقنع ايها الاب بيلو

فقال بيلو نعم وانا ارى مثلك ان الدكتور قد اصاب في قوله بالرغم عن ضجري من الثورة واهوالها وشوقي الى مزرعتي واهلي · فسافر انت يابيتو لتنوب منابي في المزرعة اذ قد طال غيابنا عنها وانا ابقى هنا طوعاً للدكتور لان حجته لا تُرد

وما اتى بيلو على هذا الكلام حتى ابرقت اسرة بيتو وطار فرحاً · لانه ذكر كاترين وايامه الماضية معها فرقص قلبه في صدره شوقاً اليها والى البلاد التي ربي فيها · وقبل ان يلفظ كلمة جواباً على قول بيلو قال جيلبار · نعم سافر ونب مناب بيلو في مزرعته وخذ معك ابني سباستيين من مدرسة لويس الكبير الى مدرسة الاب فورتيه في فيله كوتره لعل هواء الخلاء يكون احسن تاثيراً في صحته من هواء باريز

وهكذا جرى · فسار بيتو وعاد بسباستيين الى ابيه ليودعه ثم سافر معه الى فيله كوتره وقلبه يرقص طرباً لقرب اجتماعه بكاترين الجميلة

الفصل الثاني عشر

(الملكة قلقة)

عادت الراحة قليلاً الى النفوس بعد عودة الملك من باريز الى فرساليا · وقد سرَّ الملك بسياحته لانها امالت الشعب اليه

اما ناكار وزيره فقد كان يعمل اعمالاً تميل الشعب عنه والاشراف يستعدون لمقاومة هذه الاعمال والشعب هادئ يراقب الفريقين

واما الملكة فكانت هي القلقة وحدها في خلال هذه المدة لانها كانت تحس بكونها ملتقى بغض الشعب بامره · على انها كانت تحس بهذا وتحس ايضاً بانها ملتقى امال جميع انصار الملكية

وكانت لم تشاهد جيلبار منذ عودة الملك من باريز · ففي ذات يوم كانت خارجة من قاعة الملك فوجدت جيلبار داخلاً · فحياها الدكتور باحترام كثير فوقفت ماري انطوانت وسألته أأنت داخل على الملك · فقال نعم · فقالت باسمة تدخل عليه كطبيبه ام كمستشاره · قال بل كطبيبه يامولاتي لاني اليوم في نوبتي في القصر

فابتسمت الملكة واشارت اليه ان يتبعها فلحق بها جيلبار باحترام فدخلت معه الملكة الى قاعة صغيرة هنالك وجلست في كرسي ثم اشارت اليه بالجلوس فجلس فقالت له الملكة أكنت تخدعني ايها الدكتور يوم قلت لي ان الملك لا خوف عليه من السفر الى

باريز . فقال جيلبار حاشا ياسيدتي . قالت فما هذا الذي سمعته اذاً من قتل امرأة كانت واقفة امام مركبة الملك برصاصة اصابت زرّ ثوبك وارتدت عنه الى صدرها

فاصفر الدكتور جيلبار وقال لم ارَ هذا الامر مهماً بقدر ما تحسبين جلالتك فانني ارتاب في ان رجلاً اطلق الرصاص عمداً

فاغتاظت الملكة وقالت كيف ترتاب في ذلك والمرأة قد قُتلت كما ذكرت لك . وهل هكذا يكون الدفاع عن الباريزيين

فقال جيلبار مولاتي مولاتي لا تتهمي شعب باريز بهذه الجناية فان الشعب بريء منها . لقد خبرت اخلاق الشعب وشهدت غضبه في كثير من الاوقات فرأيت انه اذا اراد الانتقام فانه لا يستعمل آلة للقتل بل يتناول غرضه بيده فاذا كان حقيقياً ان رصاصة اطلقت على الملك فليس الشعب الذي اطلقها

فقالت الملكة تقول ان الشعب لا يستعمل آلة للقتل بل يقتل بيده ولكن انسيت انه قتل فلاسل برصاصة ايضاً

فقال جيلبار ولكن نسيتِ جلالتك ان كثيرين غير الشعب كانوا يرغبون في قتل فلاسل

فسكتت الملكة هنيهة ثم قالت له ولماذا لم ارك بعد عودة الملك من باريز . قال لان جلالتك لست بحاجة الي . فقالت الملكة هذا تواضع منك فقال انا لا احب ان اكون متواضعاً . قالت عجباً ولماذا قال لانني اذا لم اكن متواضعاً كنت قوياً شديداً وفي هذه الحالة اكون اكثر مقدرة على منفعة اصدقائي والاضرار بالاعداء

فقالت الملكة لماذا تقول الاعداء ولا تقول اعدائي . فقال جيلبار لانني لا اعرف لي عدواً ياسيدتي . فقالت الملكة مبهوتة وكيف لا تعرف لك عدواً . قال لا اعرف لي عدواً او بالحري لا اعرف اني عدو احد وذلك لاني لا ابغض احداً فقالت . ولماذا انت لا تبغض احداً . قال لاني لا احب احداً

فدهشت الملكة من هذا الكلام وقالت له تقول انك لا تحب احداً فهل انت اذاً طامع بالمجد حتى يشغل حب المجد كل قلبك . فقال جيلبار بهدوء كنت طامعاً اما الآن فقد زال طمعي لسقوط املي . فقالت الملكة باسمة ولكن لا بد ان يكون بقي في نفسك نوع واحد من الطمع والامل . قال اي شيء تعني جلالتك قالت حب الوطن

فقال اما حب الوطن فانني اسيره ووقف له . فتنهدت الملكة وقالت وا اسفاه ما

اصعب هذه الايام وما احلى تلك الايام التي كان فيها حب الملك جزءاً من حب الوطن ٠

فاحس جيلبار بما في كلام الملكة فقال باحترام انني احب الملكية يامولاتي اكثر من كل شخص سواي

فعادت هنا للملكة كبرياؤها الطبيعية فرفعت راسها وقالت بعنفوان وخيلاء ان من يحب ملكه فانه يقوم بما يجب عليه

فرفع جيلبار عند ذلك راسه ايضاً لانه ما كان ينتظر هذه الكبرياء الفجائية بعد استرسال الملكة في ملاطفته وقال ولكن هذا الواجب يامولاتي قد يكون القيام به صعباً وربما جاء وقت اصبح من واجبات الملكية ان تشكر من يقوم بما يجب عليه لها

فنهضت الملكة عند هذا الكلام بهدوء واستياء قائلة٠ هذا ما تراه انت اما انا فارى ان الله الذي اعطى الملوك عروشهم وتيجانهم قد قضى على الرعايا ان يخدموهم دون ان يجب لهم الشكر على خدمتهم ٠ وقد علمتُ غير مرة انك تنادي كثيراً بقوة الشعب وسلطته فانا ٠ انا وحدي ساري كل معتدٍ على سلطة الملك كيف يكون الاعتداء

ثم سارت في طريقها بغضب تاركة جيلبار مبهوتاً مدهوشاً٠ فكأنها بريح غضبها هذا قد رفعت عن عيني جيلبار طرفاً من ستار كثيف كان يحاول بعضهم وضعه على الثورة وهو ستار مقاومتها وخنقها

فقال جيلبار بعد مسيرها علمت الآن شيئاً وهو ان الملكة تفكر بامر ما ٠ ثم دخل على الملك

اما الملكة فسارت وهي تزمجر وتقول في نفسها ٠ لم يبقَ الآن شبهة لدي في انه لا يجب ان نرجو من هذا الرجل اخلاصاً

مساكين انتم ايها الملوك والعظماء الذين تريدون بكلمة « الاخلاص » الذل والعبودية لا الحب والصدق في الخدمة

الفصل الثالث عشر

(القلب والحب)

ولما دخلت الملكة الى غرفتها ضاقت الارض بها واصبحت الدنيا سوداء في وجهها لانها كانت تجد نفسها قلقة مضطربة بصفتها امرأة و بصفتها ملكة

بصفتها ملكة لانها حيثما وضعت قدمها كانت تجد الارض متحركة تحتها وسلطة الشعب تقوى شيئاً فشيئاً وتعلو على سلطتها

وبصفتها امرأة لانها رات كل احبائها ومقربيها بدأوا يتخلون عنها. فنساؤها المقربات اليها اخذن بالمهاجرة من فرنسا خوفاً من عواقب الثورة ورجال البلاط اصبح همهم وقاية انفسهم واموالهم حتى عزيزها الكونت دي شارني الذي تحبه كما تحب نفسها تغير قلبه وانقلب عليها

كلا لم يتغير قلبه ولكنه كان آخذاً في التغير. والخوف من تغير قلب الحبيب عذاب هائل للمرأة التي تحب حباً قلبياً وشيء لا تصبر عليه المراة التي تحب بكبرياء وعظمة

والملكة تحب شارني حباً قلبياً وكبريائياً لذلك كان خطبها مزدوجاً

فكان في قلبها جرحان جرح امراة تحب وجرح ملكة ترى ان رجلاً لا يعبأ بها ومع ذلك فقد كانت الملكة تستطيع ضمد هذين الجرحين لو ارادت وذلك باطلاع شارني عليها ومحادثته بالعذاب الذي تقاسيه من فتور حبه

ولكنها كانت ملكة. والملكة ان احبت فهي تحسب انها تولي حبيبها جميلاً غير جميل الحب. وهذا في الحب من سوء حظ الملكات

ولذلك لم تسعَ الملكة في استرضاء شارني واستمالته بالرغم عنها لان كبرياءها لم تكن تطاوعها على ذلك .

وكانت قد لحظت ان شارني ينصرف عن حبها ميلاً الى الكونتس زوجته فصارت تحسدها وتغار منها

ومتى حسد الانسان او غار نقصت قيمته الادبية

ومن نتائج نقص القيمة الادبية عواطف رديئة

ونتائج العواطف الرديئة افكار رديئة

ونتائج الافكار الرديئة اعمال رديئة. ولذلك ابتدأت الملكة بالاعمال الرديئة

وقد راينا كيف اصبحت تسيء معاملة شارني وتغضب منه ومن زوجته بلا علة ولا سبب

وكان شارني رجلاً كريماً لا يطيق ذلاً ولا ضيماً

فلما راى غيرة الملكة من زوجته قال في نفسه لا بد اذاً ان يكون في اندريه

شيء يستحق الحسد والغيرة ولم يرَه فيها

ومن الثابت ان لا شيءَ في العالم يقرب رجلاً من امراة كغيرة حبيبة من هذه المرأة غيرة ظالمة

لذلك كانت الملكة كلما ازدادت غيرة من اندري ازداد شارني ميلاً اليها

كانت الملكة غيورة من الكونتس دي شارني والغيور يكون عادة احط من الذي يُغار منه · فهل ان في الكونتس شيئاً لا يوجد في الملكة ؟ ام ان الملكة اكتشفت فيها الآن اشياء ما كانت تعلم بها قبلاً · ام انها رأت ان شارني اصبح اقل حباً لها مع انه لا موجب لتقليل حبه ؟

على انه لا شيءَ يزيد القلب الذي يطلب البعد بعداً مثل طلب تقريبه · ولا شيء يدل الحبيب على شروعه في الابتعاد عنا مثل غيرتنا عليه كأننا بهذه الغيرة ننبهه الى فتور حبه

ومتى تنبه الى ذلك وعلم انك مصيبة في نسبة الفتور الى قلبه فهل ترينه يعود ايتها الحبيبة الى سابق عهده · كلا · فما اجهلكم ايها المحبون بقلوب المحبين · بل ما اجهل الذين يسمونكم جهلاء وانتم عميان لا جهلاء فقط اذ الحب لا يرى ولا يسمع ولا يختبر بل يسوق قلباً الى قلب وخلقاً الى خلق كما تسوق قوة الجاذبية الحديد الى المغناطيس

فهل يسمى المغناطيس اعمى متى نفدت قوته وضعفت عن جذب الحديد

كلا · وكذلك لا يسمى قلب شارني اعمى لان عيني الملكة اصبحتا ضعيفتين عن جذبه كما كانتا تجذبانه من قبل

والذي نبهه الى ضعفها وفتور حبه لها هو غيرتها عليه · فما اقبحك ايتها الغيرة وما احلاك

ما اقبحك لانك تشين بالحبيب الى حبيبه وتعكرين صفو الكاس · وما احلاك لانك اذا كنت دليلاً على ضعف الحب في احد القلبين فانك دليل على زيادته واشتداده في الثاني

وهكذا كانت كلما ازدادت الملكة غيرة على شارني ازدادت حباً وازداد فتوراً والملكة اذا ازدادت حباً ازدادت كبرياء لانها لا تحب الا كملكة وكبرياؤها تجعل حبها ممزوجاً بالسخط والغضب

بالسخط على ذلك المتمرد على قلبها وعلى تلك الجريئة الجسورة التي سلبتها حبيبها

ولذلك اصبحت الملكة ساخطة على شارني وعلى الكونت معاً

اما شارني فانها اصبحت لا تعبأ به ولا تلتفت اليه ٠ هذا اذا كان حاضرًا ٠ حتى انها كانت تتجاهل حضوره ٠ واما اذا كان غائبًا فلا تفتكر باحد سواه ولا تفتش عيناها عن احد سواه

واذا فتشت عنه عيناها وقتاً طويلاً ولم تجداه اغرورقتا بالدمع وتضخمتا واحمرتا فاصبحتا كجمرتين منقدتين ٠ ذلك لان كل ما في القلب يصعد حينئذٍ الى الراس

ولكن متى وجدتاه قادماً فانهما تنصرفان عنه بالحال الى اول قادم غيره نكاية به فتبتسم لهذا وتلاطفه اشد ملاطفة كأن شارني المسكين غير موجود في حضرتها ٠ وبما ان جميع الشبان الذين تقابلهم الملكة هم من رجال الظرف والكياسة فان عقرب الغيرة والعذاب يلسع حينئذٍ قلب الكونت دي شارني

قطرة من الصاب يذوقها بازاء الكؤوس المرة التي تجرعها الملكة

والعادة ان الغيرة تكون دليلاً على نمو الحب كما قدمنا ٠ فياخذ الحب بالنمو في قلب شارني بعد شروعه في الضعف والفتور ٠ ولكن هنالك عينان ساهرتان على قلب شارني وهذان العينان هم عينا الكونتس زوجته

تقرأ الكونتس بهما في هذا القلب آيات العذاب من معاملة الملكة فيثور قلبها لتعزية قلبه وهكذا تجمل ملاطفته وتزداد عناية به ٠ فتؤثر هذه العناية بشارني تاثيرًا شديدًا

اولاً لانها من قبيل مقابلة الاساءة بالاحسان ٠ والاحسان ذو تاثير حسن دائماً

والسبب في كونها كذلك هو ان شارني صرف سنوات وهو مشغول عن زوجته المسكينة بالملكة ٠ فكيف لا تؤثر فيه ملاطفتها مع انه ما كان يعبأ بها

وثانيًا لانه كان يشعر بما يجب لها عليه بصفته زوجها

اذًا كان قلب شارني يدنو من قلب الكونتس زوجته بقدر ما كان يبتعد من قلب الملكة عشيقته

مسكينة ايتها الملكة ٠ فانها جعلت سياستها من بدء حبها لشارني « فرق تسد » ولكنها ما لبثت ان رات ان التفريق بين قلبيهما انتهى باجتماعهما ٠ فكبر الخطب عليها واصابها اليأس في حبها واشتد بها اليأس حتى اصبحت لا يهنأ لها عيش في نهارها وليلها

فيا ما قاست هذه المراة المسكينة بسكوت وهدوء دون ان يدري شارني بشيء من عذابها ٠ عذاب بعظمة ملكية اذا جاز ان يقال هكذا ٠ عذاب يجعل المخلوق يسبح الخالق

و يشكره على القوى العظيمة التي منحها الانسان لاحتمال مثل هذا العذاب

ولكن من كان جسمه معي من التعب والجهد لا تطلب منه ان يشعر كثيرًا بخشونة فراشه اذا كان خشنًا. وقلب ماري انطوانت كان معذبًا بالسياسة بازاء الحب لانها كانت تخشى على عرشها فكانت ترى خطبها الحبي هينًا بازاء خطبها السياسي . ولذلك لم تستغرق طويلاً في ياس الحب وعذابه

بل نظرت الى حالتها السياسية وضعف سلطتها فقام في نفسها انها لم تصل الى هذه الحالة من الضعف الا لانها استسلمت الى عواطف المراة ولم تجتنب الوهن . فعزمت حينئذٍ على ان تقوي عزمها وتشدد قواها استردادًا لما فاتها

وحين عزمها هذا العزم شعرت بفرار شيء من ياس الحب من قلبها وعودة الحماسة والقوة اليها فقررت الشروع في مشروعها

ولكن واأسفاه هذا المشروع هو الذي اضاعها (١)

الفصل الرابع عشر

(مأدبة كانت الملكية في غنى عنها)

كان في هذه الاثناء نزاعٌ بين الملك والمجلس الوطني . فان الملك كان يطلب ان يبقي المجلس له حق الموافقة علي قراراته او رفضها وهو ما يسمونه « فتو » والمجلس يقول ان قراراته هي صورة لارادة الشعب فليس من حق الملك ان يتصرف فيها

وبما ان كل شيء يعارض الملك فيه كان يُعزى الى الملكة فعزوا اليها هذه المرة ايضًا معارضة الملك. ولذلك لقبوها « مدام فتو »

مسكينة ماري انطوانت . هذا هو اللقب الثالث الذي تلقب به . فانها لقبت اولاً « النمساوية » لانها نمساوية في الاصل اجنبية عن فرنسا كما هو معلوم . ثم لقبت « مدام

(١) لخصنا هذا الفصل بشيء من التطويل في حوادثه الغرامية لنطلع القراء على الاسلوب البديع الذي يتبعه كتاب الافرنج في كتابة الروايات ولا سيما تشريحهم قلب الانسان بسيكولوجيًا فيما يختص بالعواطف الحبية لعل ذلك يفيد بعض كتابنا ويرشدهم الى المقصود من كتابة الروايات . وقد تصرفنا بالترجمة كثيرًا جريًا مع القلم شاننا في هذه الرواية

دفيسي » « اي مدام ينقص » لان الخزينة كان ينقصها المال · والان تسمى « مدام فتو » اي « مدام اعترض » لانها تعارض ارادة الامة

فلما رات الملكة استفحال كراهة الشعب لها قام في نفسها مشروع كما قدمنا · والذي زادها تفكيرًا في مشروعها انها رأت ان ٦٠ الف رجل من اعيان انصار الملكية هاجروا فرنسا في تلك السنة وسافروا الى اوربا

سافروا للانضمام الى المهاجرين الذين كانوا ينصرون الملكية وهم في الخارج وقد برحوا فرنسا لخوفهم من الثورة واستفحال امرها

فقالت الملكة في نفسها لماذا لا اهاجر انا ايضاً

فعزمت منذ ذلك الحين على السفر من فرنسا · وكان قصدها ان تخرج منها كرهًا او طوعاً ومعها الملك زوجها وولداها فاذا اصبحت معهم في امن من الفرنسو بين اثارت حزب الملكية في فرنسا على حزب الثورة ليعاقبه عقاباً صارماً · واذا اقتضت الحال بعثت الى حزبها بجنود اجنبية لانجاده بل ترسل الملك نفسه في مقدمة هذا الجند لارجاع سلطة الملكية واخماد ثورة الامة

ولم يكن في هذه الخطة شيء يمنع نجاحها ولكن سوء بخت الملكة كان غالبًا على حسن بختها

ذلك انها من قبل ان تعزم على الفرار من فرنسا بالملك علم الباريزيون بمشروعها · لان المقربين من الملكة كانوا مع اخلاصهم لها قلما يكتمون اسرارها · ولما درت الملكة بان شعب باريز قد درى بمشروعها لم تنثنِ عنه بل بقيت مصرة عليه

ورغبة في انفاذ هذا المشروع سعت في استقدام فرقة فلاندر الى فرساليا بحجة حراسة قصر الملك · وكان قصر الملك في الحقيقة مهددًا لكثرة ما كان يحدث من الفتن · وهذه الفرقة فرقة فلاندر كانت اشد الفرق اخلاصاً للمكية · فحضرت الى فرساليا وخرج لاستقبالها جنود الحرس الفرنسوي والحرس الملكي · فاصبحت الملكة بعد وصولها قوية وكان في امكانها السفر حينئذٍ لو اقدمت عليه

ولكن سوء بختها كان متغلباً على حسن بختها كما قدمنا · ولذلك ثارت مدينة لييج على امبراطور النمسا في ذلك الحين فاشتغل الامبراطور باخضاعها وكرهت ماري انطوانت ان تشغله بنفسها مع هذه الشواغل فاستمرت الحوادث جارية بسرعة هائلة

وكان الجند الملكي قد استقبل فرقة فلاندر استقبالاً عظيمًا جدًا فلم يكتفِ بذلك

وعزم ضباطه على اقامة مادبة لضباطها

فيالك من مادبة كنتِ السبب في اضرام نار هائلة

فاجتمع الضباط وطلبوا قاعة في قصر الملك لاقامة المادبة فاجابتهم الملكة الى طلبهم فاقاموا « الواجأ » فيها واعدوا المادبة

وكان الوقت اول آكتوبر واليوم يوم خميس . وكان الملك في الصيد لانه كان يكره صرف الوقت في التثاءب والكسل فلجأ الى الصيد حين راى ان المجلس الوطني لم يترك له ان يعمل شيئاً فكان يرئس الامة دون ان يحكمها

فابسف الضباط لان الملك لا يحضر مادبتهم ولكنهم مع ذلك اجتمعوا واخذوا يشربون ويا كلون . وكان الشعب قد تجمهر امام قاعة المادبة مئات والوف من اناس صفر الوجوه خمص البطون نحلاء الاجسام ممزقو الثياب ينظرون من خلال الابواب والنوافذ الى الضباط ذوي الرياش المتماوجة والسيوف اللامعة والزينة الفاخرة

وكان يخرج من قاعة المادبة انفاس الخمر واللحم فتهب على ذلك الشعب المسكين فكان يتلذذ بمجرد رائحتها . ولكن كان من الخطاء والخطر ان يشم اولئك المساكين رائحة النعمة والراحة وهم في ما هم فيه من الضيق والشقاء

وكانت الملكة في غرفتها حزينة كئيبة والحزين لا صبر له على سماع احتكاك الاقداح واصوات السرور

فشرب الضباط في اول المادبة بهدوء وتحادثوا بتانٍ . ولكن في وسط المادبة نهض احدهم واقترح عليهم شرب نخب الملك والملكة وولي العهد والاسرة المالكة . فشرب الجميع هذا النخب المربع وهتفوا اربع مرات هتافاً عظيماً

فراى احد الحاضرين حينئذٍ ان الجالسين قد اغفلوا اسماً لا يجب ان يغفل وعلى الخصوص في مثل تلك الايام فنهض واقترح عليهم شرب نخب « الامة »

وكانوا يومئذٍ اذا قالوا الامة فانهم لا يعنون بهذا القول حزب الملكية

فثار الضباط وصاحوا لا لا . فرفض نخب الامة

فيا للاهانة العظيمة . ليس بدعاً اذا نسي الناس نخب الامة ولكن الذنب العظيم ان يرفضوا نخبها فان الرفض اهانة لها . وفي الحقيقة ان الرفض كان اهانة . على ان الامة انتقمت بعد ذلك لهذه الاهانة انتقاماً هائلاً

ويروى ان الرجل الذي قام واقترح هذا الاقتراح لم يقترحه رغبة في الامة ولكن

ليحمل الضباط على رفض النخب واهانتها · فهو اذاً من اعدائها لا من اصدقائها

ثم ساد الهرج والمرج بين الضباط وفاضت كؤوس الخمر تزيد هياجهم هياجاً · فانشدت الالحان وصدحت الموسيقى واستسلم الحاضرون الى الهياج الشديد

ولكن كان ينقصهم الملك والملكة

فخرج بعضهم وسار الى غرفة الملكة ليسالوها التعطف بزيارة المادبة · فوجدوها حزينة في غرفتها فعرضوا عليها التماس الضباط فاجابتهم انها لا تستطيع زيارة المادبة من غير ان يكون الملك معها · فقال لها احدهم ولكن جلالتك تستطيعين حضورها مع ولي العهد فسكتت الملكة · ولكنها ما لبثت ان سمعت قائلاً يقول لها بصوت منخفض بجانبها احذري يامولاتي وكوني حكيمة

فالتفتت الملكة فابصرت الكونت دي شارني

وكان قلب الملكة في ذلك الحين طافحاً حزناً وياساً وفي نيتها ان تصنع عكس ما يقوله شارني · فلما قال لها ذلك رمقته شزراً بنظر طافح احتقاراً وهمت ان تسمعه كلاماً قارصاً · فقال دي شارني في الحال · رحماك يامولاتي لا تحضري المادبة فان الهياج فيها شديد وانتظري على الاقل راي جلالة الملك

واذا بضابط واقف بالنافذة ينادي عاد الملك من الصيد ياسيدتي

فابرقت اسرة الملكة · وكان ما قصه عليها الضباط من تحمس زملائهم في المادبة وطلبهم حضور ملكتهم بينهم ورفضهم نخب الامة — كل ذلك اثر في قلبها تاثيراً عظيماً فقالت في نفسها : اذاً بقي لنا الامل في المقاومة والنجاة اذا احسنا استخدام هذا الاخلاص والامانة

ثم نهضت وخفت لاستقبال الملك وفي يسارها يد ابنها · ولما التقت بالملك قالت له الحق بي ياسيدي لاريك حفلة اهلا لحضورك فيها ثم اخذته بيدها اليمنى واخذت ابنها باليد اليسرى وسارت نحو قاعة المادبة

فلما نظرها شارني تسير قبض بيديه على احشائه من المه وغيظه · وقد وصل الملك والملكة الى مدخل القاعة وجلبة الضباط تشق عنان السماء وهم يفرغون كؤوسهم في بطونهم للمرة العشرين ويصرخون « ليحيَ الملك · لتحيَ الملكة »

الفصل الخامس عشر

(في المادبة)

ولما دخل الملك والملكة وولي عهدهما الى قاعة المادبة زعق الحاضرون كلهم بصوت واحد زعقة زُلزلت لها اسس المكان هاتفين « ليحيَ الملك تحيَ الملكة » وصدحت الموسيقى العسكرية

اما الملكة فسرها هذا التحمس فقابلته بالابتسام واما الملك فدلته غريزته على ان حضوره في وسط ذلك التحمس ليس امرًا محمودًا . ولكنه مع ذلك صبر وسرَّ بما اظهره الضباط من الميل اليه

واما شارني فقد ساءه حضور الملك والملكة هذه المادبة اذ لولا حضورهما لامكن في اليوم الثاني تكذيب كل ما يُراد تكذيبه من حوادثها اما حضور الملك فيجعل حوادثها حوادث تاريخية لا يمكن تكذيبها

وبلغ استياؤُه اقصى الدرجات لما راى اخًا له في جملة اولئك الضباط ويسمى جورج تقدم من الملكة وطلب منها شيئًا

فابتسمت الملكة له ومدَّت يدها فحلت منطقتها (زنارها) ودفعتها اليه

وكانت هذه المنطقة سوداء والاسود شعار النمسا ورايتها . فطار صواب شارني لما راى صنع اخيه والملكة

اما اخوه جورج فانه اخذ المنطقة السوداء التي هي رمز الى راية النمسا وقطعها وناول الضباط من قطعها

فهتف الضباط هتاف السرور العظيم والقوا الشعار الملكي وهو الابيض جانبًا وداسوا الشعار الوطني وهو المثلث الالوان باقدامهم ووضعوا مكانهما الشعار الاسود النمساوي

فغلى الدم في عروق الكونت دي شارني عشيق الملكة لانه ادرك خطارة هذا الامر العظيم

ذلك لان الملكة بتسليمها منطقتها السوداء ورضاها ان تُتخذ لذلك الرمز لم تقصر في ما يجب عليها لفرنسا وطنها الجديد ولكن خانتها

وحينئذٍ اشتد الهياج الى درجة لا يستطيع قلم ان ياتي على وصفها . فخرج الملك والملكة من القاعة بعد مجاملة من فيها

وبعد خروجها من المادبة بلغ الهياج بين الضباط مبلغاً يقرب من الجنون فهاجوا وماجوا وسكروا حتى لم يبقَ في امكانهم الوقوف على اقدامهم · وصاروا يدوسون الشعار الوطني المثلث الالوان و يرفعون الشعار النمساوي فوق رؤُسهم

وكان بين الضباط بعض من ضباط الحرس الفرنسوي فرفعوا اصواتهم بالشكوي من اهانة الامة ولكن اي تاثير لاصواتهم القليلة بازاء اصوات باقي الضباط الكثيرة

لذلك لم يعبأ احد بشكواهم ولا التفت الى ملاحظتهم

الا ان الشعب كان واقفاً خارج المكان يراقب و يسهر على اعمال رجال المادبة · فبلغه ان الضباط داسوا شعار الامة باقدامهم ووضعوا الشعار النمساوي مكانه فثار ثائره وغلت مراجل الانتقام في صدره

ثم انقضت المادبة بعد هياج لا حد له

ولم يشترك شارني في هذا الهياج لانه كان مستاءً وعارفاً ان الشعب سياخذ بثاره · واما الملكة فكانت مسرورة كل السرور بنهارها فزارها الملك قبل النوم في المساء فسالته رأيه فاجابها كئيباً : غداً ترين نتيجة تاثير هذه المادبة

فما اشد الملك جهلاً بعواطف امراته · لقد حسب انه بهذه الكلمة يبث الخوف والحذر في نفسها وما درى انه بث بها حب المقاومة والمصادمة

ففي المساء اخذت الملكة وهي في فراشها تفتكر فيما صنعته فقالت في نفسها · لقد صدق الملك لا بد ان يتاثر الشعب غداً مما حدث في المادبة · واذا تاثر ذلك الوحش الهائل فانه لا يبعد ان يشحذ اسنانه لافتراس اولئك الضباط المساكين · هولاء البواسل المخلصون للملك والملكة الذين هم بقية ما بقي من انصار الملكية· الذين لا يحجمون حين الحاجة عن الجود بنفوسهم في سبيل ملكتهم — هولاء البواسل غداً يعرفهم الشعب فيحفظ الحقد لهم في قلبه ويغتنم الفرصة الاولى لانشاب اظفاره في مهجهم · وكل ذلك بسببي انا الملكة · فيجب عليَّ اذا ان لا اجحد الجميل وان اسعى في انقاذهم · وتوصلاً الى ذلك ينبغي ان اتحمل وحدي تبعة كل ما جرى امس في المادبة

وفي اليوم التالي كان احتفال بتوزيع الاعلام على جنود الحرس الوطني في فرساليا · فحضر الجنود حزانى كئيبين لاستلام اعلامهم من ملكتهم· وكانوا يمشون نحوها وهم مطرقون الى الارض · فرأت الملكة في وجوههم علامة استيائهم مما حدث البارحة

وكان الشعب مع هولاء الضباط ينتظرون راي الملكة في تلك المادبة · والضباط

الذين اقاموها ينتظرون رايها فيها ايضاً ليعلموا الى اي حد يمكنهم السعي لمقاومة الثورة ونصرة الملكية . فكانت جميع الانظار في الحفلة متجهة الى الملكة وجميع الاسماع تترقب الكلمة الاولى التي ستخرج من فمها اذ يتوقف عليها امر عظيم . وكانت الملكة قد عزمت ان تاخذ كل شيء على نفسها تبرئة للضباط وما صنعوه امس . فلما وزعت الاعلام على الحرس الفرنسوي قالت لهم

« ايها السادة يسرني ان اسلمكم اليوم اعلامكم . ولا تنسوا ان الامة والجيش يجب عليهما ان يحبا الملك كما نحب نحن الجيش والامة . اما مادبة امس فقد سرتني كثيراً »

فلما لفظت هذه الكلمات « اما مادبة امس فقد سرتني كثيراً » تحمس الضباط وهتفوا ملء اصواتهم قائلين « ليحيَ الملك لتحيَ الملكة » ذلك لانهم علموا ان الملكة معهم وغرضها مقاومة الثورة بما في استطاعتها واما باقي ضباط الحرس الفرنسوي وجنودهم فازدادوا كدراً وانقباضاً (١)

وكان شارني حاضراً وقد سمع قول الملكة فتنهد مستغرباً ان تثني الملكة على الاعمال التي اهان الضباط الامة بها في المادبة

اما الملكة فانها فتشت عنه بنظرها ولما وقعت عينها على عينه ابتسمت له ابتساماً كان معناه « الستُ جريئة »

فهز شارني راسه هزة خفيفة بضجر وكآبة وكان معنى هذه الاشارة « وا اسفاه انت متهورة لا جريئة »

الفصل السادس عشر

(متى تداخلت النساء حل البلاء)

كان جند الملك يقيم المآدب في فرساليا وياكل اللحوم ويشرب الخمور وشعب باريز المسكين بلا كسرة خبز يسد بها رمقه

ومن ذلك يظهر قصر نظر الذين كانوا يقاومون الثورة في ذلك الزمان. فانهم بدل اهتمامهم باعطاء الشعب اعمالاً يعملها وخبزاً ياكله فيشتغل به عنهم ولا يعود يحسدهم على ما في ايديهم اخذوا يشتغلون بمقاومة نوابه واهانة شعاره

(١) لا نرى هنا بداً من التنبيه الى ان ما يرد ذكره في هذه الرواية عن الشعب وتقلباته مع الملكية انما هو من الحوادث التاريخية الحقيقية وكل هذا تاريخ كما نرى

وما دروا ان الشعب لا يكون قليل الصبر كثير الانفعال شديد المقاومة الا متى كان جائعاً

وكان الجوع شديداً في تلك السنة في باريز فكان الشعب يطوف الشوارع والازقة وهو ينادي بسخط وغضب طالباً خبزاً ويده على سلاحه · الا انه اصبح يجتنب سفك الدماء لانه ذكر معركة الباستيل ومقتل فلاسل وفولون وبرتيه فكره ان يسمى قاتلاً وجانياً مرة ثانية · لذلك كان ينتظر

ولكن اذا انتظر الرجال فالنساء لا يستطعن الانتظار لان اولادهن يبكون ويطلبون خبزاً وهن من طبعهن انهن شديدات الانفعال

ففيما كان الدكتور جيلبار جالساً مع بيلو في ذات يوم في احد الاندية واذا بامرأة صفراء الوجه كانها خيال من النحافة والرقة قد دخلت واخذت تنادي وتحث الحاضرين على مقاومة الظالمين · فذكرت حادثة المادبة واكرام الشعار النمساوي ودوس الشعار الوطني

فقال جيلبار لبيلو : هذه علامة من اسوء العلامات فانه اذا تداخلت النساء لم يبطئ البلاء

ثم نهض وسار به في شوارع باريز فابصرا في الطريق فتاة في الخامسة عشرة تضرب طبلاً معها · فاستغربا ذلك · فدنا منها بيلو وسالها ما وراءك ايتها الجميلة ولماذا تضربين الطبل فقالت تلك المسكينة التي كانت كانها زهرة ذابلة في غصنها — انا جائعة وانادي الناس ليطعموني

فتمزق قلب بيلو حزناً عليها · اما جيلبار فقال هذا يخيفني فان الحالة تزداد هولاً

وبقيت هذه الفتاة تضرب على طبلها والنساء يجتمعن حولها حتى تجاوز عددهن الف امراة فاصبحن جيشاً عرمرماً · وكان في جملتهن نساء من البائعات والبوابات وغيرهن وفيهن من كانت لم تذق طعاماً منذ ٣٠ ساعة · فتصور هياجهن

وكان غرضهن الزحف الى المجلس البلدي فاتجهن اليه وامامهن الابنة التي تضرب الطبل وهن ينادين النساء اللواتي يجدنهن في النوافذ والابواب للحاق بهن فكن ينضممن اليهن طوعاً او كرهاً · ولذلك ما وصلن الى ساحة المجلس البلدي حتى كان عددهن ١٠ الاف امراة

١٠ الاف امراة كانهن جيش زاخر ومعهن الحراب والعصي والبنادق بعضهن يطلبن

الخبز لسد رمقهن و بعضهن يطلبن الانتقام لشرف الامة الذي يُهان

وحينما اصبحن تحت جدران المجلس البلدي اخذن يبحثن فيما يلزم ان يصنعنه · فصاحت احداهن : يجب ان نحرق المجلس وما فيه من الاوراق التي تمنع الخبز من الوصول الينا

وكان بالي ولافاييت لما بلغهما خبر اجتماع النساء وامامهن طبل يُضرب ضحكا وحسبا الاجتماع مزاحاً · ولكن لما ابصرا الوف النساء المسلحات وشاهدا وراءهن الوفاً اخرى من الرجال قادمين وهم يضحكون من صنعهن ضحكاً مخيفاً هالهما الامر وخافا سوء المنقلب

وكان خوفهما في محله · فان النساء ما لبثن ان اندفعن الى المجلس لاضرام النار فيه وقذف اعضائه في نهر السين

اذًا كان غرضهن امرين : اغراق واحراق

ولكن احداهن وهي اشدهن اسراعاً على ما يظهر قالت ان الاغراق امر يطول اذ يقتضي حمل ٣٠٠ عضو من اعضاء المجلس وقذفهم في النهر فاقترحت ان يكتفي الثائرات باحراق المجلس رغبة في سرعة انهاء العمل

فوافقن على اقتراحها وطلبن ناراً

وقبل ان تاتي النار ابصر النساء راهباً في المجلس فهجمن عليه ووضعن حبلاً في عنقه وهن يضحكن ثم شنقنه في نافذة قريبة

وكان بينهن رجل يراقبهن وقد جاء معهن من اقصى المدينة الى هذا المكان وهو جندي يُرى في وجهه علامات الشهامة والبسالة · فلما ابصرهن يشنقن الراهب استل سكيناً وهجم فقطع الحبل بالحال فسقط الراهب على الارض فانكسرت رجله · ومع ذلك فانه نهض مذعوراً خائفاً وصار يعدو وهو يصرخ غير مصدق انه قد نجا بنفسه · وهذا الراهب يُدعى ليففر دورميسون

ثم جاءت مشاعل النار فتناولها النساء وهجمن لاضرام الاوراق

فهاجمهن ذلك الرجل بلا خوف واختطف النار من ايديهن · فهاجمنه لاستردادها فكان كلما اقتربت واحدة منهن اضرم النار في اذيال ثوبها فتنشغل باطفاء اذيالها عن مهاجمته

هنّ كن يشتغلن باطفاء اذيالهن وهو كان يشتغل باطفاء الاوراق المضطرمة

ولكن ما لبث النساء ان ثار ثائرهن على هذا الرجل وعجبن من انهن صبرن عليه الى الآن . فاستحضرنَ في الحال حبلاً طويلا والقينه من بعيد حول عنقه ثم جررنه الى نافذة ورفعنه ليشنقنه فيها

واذا برجل ضخم الجثة ينقض من الخارج وفي يده سكين فقطع الحبل كما قطعه ذلك الرجل لما كان في عنق الراهب قبل هنيهة

واحدة بواحدة . ومن يصنع الخير يلقى مثله

اما الرجل القادم فانه بعد قطع الحبل التفت الى النساء صارخاً بصوت جهوري . ماذا تصنعن ايتها الوطنيات . اما تعلمن ان هذا الرجل هو « مايار »الباسل احد الابطال الذين فتحوا الباستيل

فتقدم مايار من الرجل ومد يده اليه مصافحاً ثم قال له — شكرًا لك يامسيو بيلو . فقال بيلو لا شكر ياسيدي لانك خلصتني مرة تحت اسوار الباستيل

واما النساء فلما علمت ان هذا الرجل هو مايار وهو من ابطال الباستيل وكن قد سمعن ببسالته انقلبن من الغضب الى الرضى وهجمن على مايار يوسعنه ملاطفة وتقبيلا

فيا لك من بحر غريب يا بحر الشعب . فان نسمة ترفع امواجك جبالاً الى السماء واقل شيء يجعلك ساكناً راكدًا

وبعد ذلك التفت مايار الى النساء وطلب منهن ان لا يحرقن المجلس فان هذه القوة التي يطلبن هدمها هي القوة المدنية التي تنصر الشعب على مقاوميه فيجب عليهن مساعدتها لا مقاومتها . فاقتنعت النساء ولكن ساءهن ان لا يصنعن شيئاً فصاح بعضهن فلنذهب اذًا الى فرساليا لنرى الخباز والخبازة

وكانوا يعنون بالخباز الملك وبالخبازة الملكة

فصاح حينئذٍ غيرهن نعم الى فرساليا الى فرساليا نحن جيش ومايار جنرالنا كما ان لافاييت هو جنرال الرجال . ومنذ هذا الحين اخذوا يسمون « مايار » جنرال النساء فرضي مايار باللقب وبالوظيفة

الفصل السابع عشر

(الشعب يسير الى فرساليا)

وكان عدد هؤلاء النساء المتجندات ٨ الآف امرأة ومعهم المدافع والحراب

والبارود يضعنه في مناديلهن وجيوبهن فرأى مايار انهن يحدثن هياجاً عظيماً في باريز اذا بقين فيها فضلاً عن استمرار هياجهن فراى من الحكمة ان يسوقهن الى فرساليا كما يطلبن ثم متى وصلن الى هناك اخمد هياجهن بما اصبح له من السلطة عليهن

فدنا مايار من الفتاة الجائعة التي كانت تضرب الطبل في المقدمة وتناول الطبل منها. فالقته الابنة اليه تخلصاً من ثقله فوق ثقل جوعها . وبعد ان اخذه مايار منها سقطت من الجهد والجوع على الحاجز الحجري هناك والقت راسها عليه كانها مائتة

فكان الحاجز الحجري وسادة لها. وهو في الحقيقة بالنسبة الى المعذبين في الشوارع وسادة الجوع والفقر والشقاء

فسالها مايار عن اسمها . فقالت ان اسمها « مادلين شامبري ». وقد كانت صناعتها في اول عهدها نقش الاخشاب لتزيين الكنائس بها . ولكن حوادث الثورة صرفت الافكار عن الكنائس وزيناتها فلم تعد هذه المسكينة تجد عملاً

فاتخذت صناعة بيع الازهار في الشوارع لتربح ما تسد به رمقها . ولكن باقات الازهار نجوم تسطع في اوقات السلم والسعة وتذبل عند ما تهب عليها انفاس الجوع والثورة لان الجوع لا يبقي في الجيوب مالاً لابتياع الخبز فكيف الازهار . لذلك اضطرت الى ترك هذه الصناعة ايضاً. ولما لم تجد عملاً تعمله حملت طبلاً واخذت تطوف باريز وهي تقرعه وتطلب خبزًا كما قدمنا

فاقترح مايار عند اخذه هذا الطبل منها ان تُرسل هذه الفتاة مع ١٢ امرأة من الباريزيات وفدًا الى الملك ليطلبن منه « باسم الجوع والجائعين » اطعام الشعب خبزًا . نعم انها لا تستطيع السير لضعفها ولكنها تسير الى فرساليا مع رفيقاتها في مركبة

فسرَّ النساء بهذا الخاطر سرورًا عظيماً وتركن تهديد الملك وعماله لانهن اصبحن يؤملن من الملك انصافاً

فاخترن منهن اثنتي عشرة امراة وقدمن عليهن الفتاة الجائعة « مادلين » ثم وضعنهن في المقدمة وزحفن بهن الى طريق فرساليا لمقابلة الملك

ولكنهن ما وصلن الى قصر التويلري حتى وقفن كما يقف التيار لشيء يحول دون مجراه . ذلك لان حارساً كان يحرس مدخل القصر

فاراد النساء ان يمررن بالرغم عنه فتقدم جنرالهن مايار وسالهن متلطفاً ان لا يفعلن ذلك لان فيه اهانة الملك والاعتداء على الحرية الشخصية والعمومية . قلن وما السبيل

اذاً . قال مايار السبيل ان نستاذن الحارس اكراماً للملك

فصرخ النساء معاً . نعم نستاذن الحارس .

فتقدم مايار من الحارس وقد رفع قبعته عن راسه وقال له متلطفاً . نحن قاصدون جلالة الملك في فرساليا فهل تاذن لهولاء السيدات ان يمررن من حدائق التويلري للوصول الى الطريق وانا اتعهد لك بانهن لا يحدثن ضرراً

فكان جواب الحارس انه جرد حسامه بغضب وهجم به على مايار

فجرد مايار حينئذٍ حسامه ولقي به الحارس . فلما ابصر النساء ذلك انفرد بعضهن واتين الحارس وهو يناضل مايار فرفعت احداهن مقبض مكنسة ضخمة كانت في يدها وضربت الحارس بها على راسه فسقط من شدة الضربة تحت اقدام مايار . فتناول مايار سيف الحارس ومرَّ النساء من طريق التويلري دون ان يحدثن فيه ضرراً كما تعهد جنرالهن ثم اخذن بالمسير نحو فرساليا وهن على ما رايناهن فيه من الهياج والاضطراب

فلنتركهن سائرات على الطريق ولنعد الى باريز

ولا شبهة في ان اضطرابهن وهياجهن كان من شانهما ان يسريا الى الشعب . وهكذا كان

وكان لافاييت قائد الحرس حين سماعه بهذا الاضطراب يستعرض الجيش في ساحة التمرين فبادر في الحال الى ساحة المجلس البلدي حيث كان الشعب آخذاً في الاجتماع كما تجتمع الغيوم السوداء في كبد السماء

وكان لا فاييت يصرف ايامه وهو لا يعرف راحة بل كان طول اوقاته راكباً جواده الابيض الذي اشتهر اشتهاره و يتنقل عليه من مكان الى مكان . وكان يصرف النهار والليل احياناً على متنه بل ربما أكل ونام على متنه افرط تأهبه واستعداده . ولذلك صور مصورو الجرائد الجنرال لا فاييت في تلك الايام حيواناً ضخماً هائلاً اسفله جواد ابيض واعلاه انسان

و بينما كان لا فاييت مسرعاً الى ساحة المجلس البلدي وجد في طريقه فارساً عائداً منها وهو ينهب الارض بجواده نهباً . وكان هذا الفارس الدكتور جيلبار وهو سائر الى فرساليا لاطلاع الملك على ما جرى . فاستوقف الدكتور لافاييت وقص عليه ما جرى بكلمتين ثم استانف السير الى فرساليا والجنرال لافاييت الى ساحة المجلس البلدي

ولما وصل الجنرال الى هذه الساحة وجد صعوبة شديدة في المرور الى باب المجلس لكثرة

الجمع المحتشد و بعد دخوله استفهم عما جرى واخذ يملي على احد الكتبة كتاباً الى الملك بتفصيل حوادث ثورة الصباح

ولكنه لم يصل الى السطر السادس حتى دُفع باب الغرفة التي كان فيها دفعاً شديداً وظهر فيه وفد يتقدمه ضابط · قاوماً اليهم لافاييت ان يتقدموا فدخلوا الى الغرفة

ثم تقدمهم الضابط الذي كان موكولاً اليه ان يتكلم وبدأ يخطب قائلاً بجأش ثابت :

« ياسيدي الجنرال · اوفدتنا اليك عشر فرق من الفرسان لنقول لك اننا لا نستطيع ان نرفع حرابنا على نساء يطلبن خبزاً · نحن موقنون انك لست خائناً ولكن الحكومة تخوننا · واللجنة التي عُهد اليها القيام بحاجات الشعب غير قائمة بواجباتها فينبغي فصلها · ثم ان مصدر المصائب في فرساليا فنحن نريد ان يعود الملك الى باريز ونطلب اعدام جنود فلاندر و الحرس الذين داسوا الشعار الوطني باقدامهم في المادبة في فرساليا · واذا كان الملك ضعيفاً الى حد لا يستطيع عنده ان يحكم فليتنازل عن الملك الى ابنه »

وكان الخطيب يتكلم بشجاعة وثبات جأش ولافاييت مدهوش مبهوت يسمع و يرى بعجب واستغراب · فانه قد شهد فتناً كثيرة واضطرابات هائلة · رأى الشعب يزئر زئير الاسود والرصاص يهطل كما يهطل المطر فلم يؤثر فيه ذلك قط كما اثر فيه هذا الكلام القوي · ذلك انه شعر بان هذا الكلام هو انفاس الثورة الحقيقية تهب للمرة الاولى في وجهه

ومما زاد استغرابه طلب الشعب ان يتنازل الملك عن عرشه وهي المرة الاولى التي يُظهر فيها الشعب امكان استغنائه عن ملكه

فقال لافاييت للوفد بشيء من الحدة والنزق · ما هذا القول ايها السادة · اراكم تجاوزتم الحد بتعرضكم للملك ومن واجباتي ان انبهكم الى ذلك

فاجاب الضابط باحترام « نحن ياسيدي الجنرال نسفك دماءنا في سبيل مرضاتك ولكن الشعب تعيس واصل تعاسته في فرساليا وهو يريد ان يعود الملك الى باريز · هذه ارادة الشعب الواقف تحت هذا القصر »

فانعم لافاييت النظر في هذا الموضوع وهو يسمع صراخ الشعب « الى فرساليا الى فرساليا » فرأى وجوب اخماد هياجه واقناعه بترك العزم الذي عزم عليه من الذهاب الى فرساليا للعودة بالملك فترك الوفد ونزل الى ساحة المجلس واراد ان يخطب في القوم · فغطوا صوته بصراخهم الهائل قائلين « الى فرساليا الى فرساليا »

واتفق في هذا الوقت ان بالي رئيس المجلس قدم الى المجلس فازداد الشعب صراخاً وهياجاً واصبحوا يصرخون « نريد خبزاً نريد خبزاً »

وكان الجنرال لا فاييت قد دخل بين الجمع ليحاول تسكينهم فاطبق الجمع عليه من كل جانب وهم يصيحون الى فرساليا الى فرساليا ثم حالوا بينه وبين باب المجلس فلم يبق في استطاعته الوصول اليه . بل اصبح كزورق صغير على ظهر امواج الاوقيانوس وهي تتلاعب به وتقذفه الى حيث تشاء

غير ان لافاييت جهد النفس حتى وصل الى جواده المربوط في ساحة المجلس وامتطى صهوته . فكان كغريق وجد بين الامواج الهائلة خشبة فتعلق بها

اما الشعب فلما راى لافاييت قد امتطى جواده وجد انه قد اصبح اكثر تأهباً للسفر فازداد صراخاً « الى فرساليا الى فرساليا » ثم احاط بالفارس وفارسه احاطة السوار بالمعصم واخذ يشد بهما ويدفعهما بالرغم عنهما في طريق فرساليا

فبقي لا فاييت متردداً عن السير في هذه الطريق . نعم انه اذا سار الى فرساليا فانه يستطيع نفع الملك ولكن من يضمن له انه يستطيع حينئذٍ التسلط على تلك الجماهير الهائلة التي تسير معه . فانه الآن وهي لا تزال في باريز يجد انها اصبحت لا تسمع له كلمة فكيف بها اذا اصبحت في فرساليا بعيدة عن مركز قوته في باريز

وبينما كان الجنرال يتامل في هذا واذا برجل قد خرج من باب المجلس وبيده ورقة . فشخصت اليه جميع الانظار . وكان هذا الرجل هو بيلو نفسه

فما زال سائراً يشق الجموع وهم يفسحون له المجال حتى وصل الى لافاييت فالقى الكتاب اليه فعلم الجنرال انه من اعضاء المجلس قبل ان يتناوله . ولكنه ما اخذه بيده حتى علا صياح الناس من كل جانب « اقرأه جهراً اقراه جهراً » وكان الاضطراب هائلاً والصراخ مما تصم له الاذان

فاومأ اليهم لا فاييت ان يسمعوا ليتلوه عليهم فسكتت الاصوات في الحال كانها سكتت بقوة سحرية واصغى الجميع اصغاء تاماً

فقرأ الجنرال لا فاييت في الكتاب هذه الاسطر

« بناء على ارادة الشعب وعلى ما طلبه الجنرال لافاييت القائد العام مما ليس في استطاعتنا رفضه قد اذنا له بل امرناه بالذهاب الى فرساليا وسيصحبه اربعة من اعضاء المجلس »

مسكين لافاييت · فانه لم يطلب قط ذلك الطلب ولكن الاعضاء راوا ان يحملوه هذه المسئولية فكتبوا ما كتبوا بناء على ما راوه من ارادة الشعب التي لا مردّ لها اما الشعب فانه لما سمع من هذه السطور ان الجنرال لافاييت قد استاذن المجلس بالسفر بهم الى فرساليا صاح من فم واحد صيحة كالرعد القاصف قائلاً « عاش لا فاييت»

فاصفر وجه لا فاييت عند ذلك ثم مدّ يده مشيرًا الى طريق فرساليا وصارخًا — هلموا الى فرساليا

فاندفع وراءه خمسة عشر الف رجل قاصدين فرساليا ليطلبوا من الملك ان يسد رمقهم بكسر الخبز الفاضلة عن مآدب بلاطه

الفصل الثامن عشر

(فرساليا)

وكان البلاط في فرساليا جاهلاً ما كان يجري في باريز حسب العادة

اما الملكة فانها بعد حوادث المادبة اصبحت ترى ان لديها جيشًا قويًا مستميتًا في حب الملكية فازدادت عنفوانًا وكبرياء

وكانت قد اصبحت تبتعد بما في استطاعتها عن شارني لا رغبةً عنه بل اهمالاً له كما مرّ بنا اما زوجته الكونتس دي شارني فانها كانت تقربها منها لا رغبةً فيها ولكن حتى لا يقال انها غضبت عليها

ولم يكن هذا الانقلاب الذي حدث في عواطف الملكة ناشئًا عن سخطها على هذه الاسرة فانها في صباح هذا اليوم ابصرت جورج دي شارني وهو اخو الكونت وضابط في حرس الملك مارًا في القصر مسرعًا فدعته اليها واخذت تحادثه متلطفة معه · فسألته الى اين يسرع في مثل تلك الساعة · فاجاب الفتى جورج انه سائر ليبلغ خدمة الصيد ان الملك يتصيد في هذا النهار · فارسلت الملكة نظرها الى السماء وقالت ان الغيوم السوداء متكاثفة فوق باريز افلا يخاف الملك المطر في مثل هذا اليوم · فقال جورج · هذه ارادة جلالته · فتنهدت الملكة وقالت اذًا فلتكن ارادة الملك· ثم خفضت صوتها وقالت · يجب ان تبقى له الارادة في هذه الشؤون على الاقل · ثم رفعت صوتها وسالت الفتى. جورج · واين يتصيد الملك اليوم فقال في حرش مودون فقالت الملكة اصحبه اذًا واسهر على حياته

وكانت الكونتس إندري حاضرة هذا المشهد

ولكن ما اتت الملكة على آخر كلامها حتى سُمع صوت من ورائها يقول

— لا يسهر على حياة جلالته فقط ياسيدتي ولكنه يبذل حياته دونها ولا سيما في الاخطار الحاضرة

فارتعدت الملكة عند سماعها هذا الصوت لانها علمت انه صوت شارني قبل ان ترى وجهه · فالتفتت فابصرت الكونت دي شارني داخلاً فقالت له بشيء من النزق : كان حتي ان ادهش لو كان قائل هذا الكلام غير الكونت دي شارني· فسأل الكونت باحترام ولماذا ياسيدتى · قالت لانك تتشاءم وتنذر بالشر دائماً

فاصفر وجه الكونت عند هذا التوبيخ واصفر وجه الكونتس اندري زوجته ايضاً · ولكن شارني لم يجب بل اكتفى بالانحناء احتراماً · اما زوجته فانها نظرت اليه نظرة كان معناها لماذا هذا الجبن والضعف · فتشجع شارني وقال : الحق اقول لجلالتك انني اصبحت تعيساً لانني صرت لا اقول كلمة الا وتسوؤها

وكان هنا لكلمة «صرت» معنى كبير وقد شد عليها الكونت حين لفظها كما يشد الممثلون في المراسح على الكلمات التي يودون توجيه الاسماع اليها بنوع خاص · فثار دم الملكة وصاحت به · تقول «صرتُ صرتُ» فما معنى هذه الكلمة

فاجاب الكونت بهدوء : يظهر انني لم احسن التكلم هذه المرة ايضاً · ثم وجه نظراً معنوياً الى اندري فابصرته الملكة واصفر لونها فقالت بغضب وحدة — انما يكون الكلام سيئاً متى كانت النية سيئة

فاجاب شارني انما يكون الكلام سيئاً متى كانت الاذن التي تسمعه تود جعله سيئاً ثم سكت

فاجابت الملكة انا لا اجاوب حتى ارى المسيو شارني قد اصبح اكثر اعتدالاً في كلامه

فدنت حينئذٍ اندري من زوجها واخذت بيده كانها تساله السكوت خوفاً من اغاظة الملكة فوق ما اغاظها· وهمت بالخروج معه فاوقفتها الملكة بنظرة شديدة وسالتها · والخلاصة ما كان يريد «زوجك» مني

فقالت اندري ان الكونت كان امس في باريز وقد عاد منها اليوم بعد ان شاهد اضطراباً مخيفاً

فقالت الملكة · احدث اضطراب جديد ايضاً ؟ ولماذا ذلك · لقد فتح الشعب الباستيل

وهو آخذ الآن بهدمه فماذا يريد اكثر من ذلك. تكلم ايها الكونت

فقال دي شارني نعم هدم الشعب الباستيل ياسيدتي ولكن حجارته لا تؤكل والشعب جائع يريد خبزاً

فاجابت الملكة بحدة . وماذا نصنع بالشعب اذا كان جائعاً . فقال ذي شارني بحدة ايضاً . لا تقولي هذا القول ياسيدتي فان من واجبات الملوك ان يصنعوا كل شيء للشعب وان يبذلوا كل شيء في سبيل خدمته ونفعه . فقالت الملكة ولكن ماذا شاهدت

فقال الكونت . شاهدت يامولاتي مشاهد ترتجف لها الابدان . شاهدت جماهير لا تحصى مجتمعة على الارصفة تنتظر الدقيق والدقيق لا يأتي . شاهدت جماهير اخرى خمص البطون صفر الوجوه عراة الابدان تنتظر الخبز امام ابواب الافران والخبز لا ياتي . شاهدت شعباً باسره جائعاً مجهوداً . الآباء ينظرون الى الامهات بحزن والم لانهم لا يستطيعون سد رمقهن بكسرة من الخبز والامهات تتمزق احشاؤهن من الجوع ومن الجزع على اولادهن الجياع امامهن . هذا ما شاهدته امس في باريز . وشاهدت ايضاً الايدي تمد الى فرساليا بالتهديد والالسنة تلفظ بغضب وجنون كلمات اليأس والوعيد . فصدقيني ياسيدتي ان الخطر شديد وانه ربما اتى عاجلاً او آجلاً ذلك اليوم الذي يحلو لي ولاخي ان نموت فيه في خدمة جلالة الملك وجلالتك

وكأن هذا القول قد اعيى الملكة فادارت ظهرها الى الكونت وذهبت الى النافذة واسندت يدها اليها . ثم نظرت الى الخارج

ولكن ما وقع نظرها على الطريق الموصلة الى القصر حتى اخذت تنعم النظر فيها ثم قالت للكونتس انظري معي ايتها الكونتس من هذا الفارس القادم الى القصر . فدنت اندري من النافذة . غير انها ما وقع بصرها على الطريق حتى تراجعت الى الوراء مذعورة وقائلة . ما هذا ياسيدتي

فتقدم عند ذلك الكونت من النافذة فابصر رجلاً على جواد ينهب الارض نهباً . فقال هذا الدكتور جيلبار عائد من باريز

فقالت الملكة نعم الآن عرفته

فنظرت اليها اندري لترى اذا كانت الملكة صادقة في قولها ام غير صادقة . فانها اذا كانت صادقة فذلك دليل على ان السهر والدموع والمصائب قد اضعفت بصرها فلم يبق في امكانها معرفة معارفها عن بعد مئات من الخطوات . واذا كانت غير صادقة فانها تكون قد

فعلت ما فعلته انتقاماً من اندري لانها تعلم ان فرائصها ترتعد لمجرد رؤيتها ذلك الرجل فلم تستطع اندري ان ترى في نظر الملكة اذا كانت صادقة او كاذبة

وكان القادم هو الدكتور جيلبار نفسه وقد قدم لاطلاع الملك على حوادث ذلك الصباح كما مرَّ بنا . الا انه لما لم يجد الملك في قصره طلب ان يواجه الملكة فاستاذن في الدخول عليها . فاذنت له فدخل لمقابلتها

الفصل التاسع عشر

(وصول النساء)

وحين وصوله انحنى باحترام امام الملكة و باقي الحاضرين ثم قال قد جئت يامولاتي مسرعاً من باريز لاطلع الملك على حركة هذا الصباح . فقالت الملكة واي حركة . فقال جيلبار ان ٨ الآف امرأة متسلحات خرجن من باريز قاصدات هذا المكان

فبهتت الملكة والحاضرون ثم سالت وماذا يطلبون عندنا . قال انهم قادمون ليطلبوا من الملك خبزهم اليومي لان منهن من يمتن جوعاً

فنظر دي شارني الى الملكة كانه يقول . اذاً قد صحت نبوءَتي

فالتفتت الملكة الى جيلبار ودي شارني قائلة — وماذا العمل الان . فاجاب جيلبار ينبغي اولاً ان نخبر الملك بالحادثة . فان الملك لا يزال محبوباً فاذا قابلهن هنا وخطب فيهن ولاطفهن القين السلاح من ايديهن وعدن على اعقابهن . فقالت الملكة . ولكن الملك الآن في مودون يتصيد وكيف السبيل اليه . فتقدم دي شارني وقال انا امرع لاخبار جلالته

فقالت الملكة ولكني لا اخال الطريق اميناً الآن فان القادمين او القادمات قد يقطعنها على المارين . فقال دي شارني . ولكنا خُلقنا نحن ياسيدتي ليوم مثل هذا اليوم والموت للرجال فمن لم يمت بالسيف مات بغيره

ثم انه من غير ان ينتظر جواب الملكة انحنى باحترام وخرج فركب فرسه وسار الى مودون لاخبار الملك

وقبل ان يغيب عن الابصار قصدت اندري النافذة وارسلت اليه منها التحية بيدها فحياها الكونت وهو ينهب الارض نهباً بجواده و يلتفت اليها

اما الملكة فانها نظرت اشارة اندري ولم تنظر اشارة الكونت زوجها

ولما انتشر بين الجنود خبر سفر النساء من باريز الى فرساليا مسلحات اخذوا بالاستعداد والتاهب . ولكنهم كانوا يتاهبون بقلق واستغراب اذ ماذا يصنعون مع النساء وكيف يهاجمون النساء وعلى الخصوص اذا كن ضعيفات خائرات القوى من التعب والجوع

ولنعد الآن الى هولاء النساء

كانت صفوف النساء فريقين فريقاً قادماً من سان كاود وفريقاً من « سفر » وقد افترقن هذا الافتراق في منتصف الطريق . ولكنهن قبل افتراقهن ظفرن في « سفر » بثمانية ارغفة من الخبز وهي كل ما كان من الخبز فيها فاقتسمنها بينهن

اي انهن قسمن ٨ ارغفة زنتها ٣٢ ليبره من الخبز بين ٨ الآف شخص ...

ولما استانفن السير الى فرساليا اجهدهن التعب والجوع حتى لم يبق في استطاعتهن حمل السلاح في ايديهن فطرح ثلاثة ارباعهن سلاحهن على الطريق تخفيفاً لسيرهن . فبقي الربع الرابع فهذا اقنعه مايار قائد النساء بان يودع اسلحته في الطريق فتركها ايضاً . فاصبح النساء بلا سلاح

وما زلن سائرات وهن يتمايلن مترنحات لان الجوع يفعل فعل الخمر في الرؤوس حتى اشرفن على فرساليا مقر الملك . فخطر لهن خاطر وهو انهن يكرهن ان يقول احد عن سفرهن الى فرساليا انه ضد الملك ولذلك اقترحن ان ينشدن في دخولهن نشيد هنري الرابع دلالة على حسن نيتهن للملكية

وهكذا ما وصلن الى المدينة حتى علت الوف من اصوات النساء بذلك النشيد الملكي فاستغرب جند فرساليا وسكانها ذلك النشيد لانهم سمعوا ان النساء قادمات للوعيد لا للنشيد . وكان منظرهن وهن داخلات مغنيات كاشباح الموتى من الجوع وسوء الحال — منظراً محزناً يسيل الدموع و يفتت القلوب

ولما وصل النساء الى القصر وجدن الحاجز الحديدي المذهب مقفلاً و وراءه الجند متاهبين فرفعن ايديهن ومددنها بعضهن ملتمسات طالبات وبعضهن مهددات

وكان جميع اكابر الضباط ورجال البلاط قد التفوا حول الملكة فالتفتت هذه الى المسيو سن بريست احد الوزراء وبعثته الى النساء ليسألهن ماذا يطلبن . فجاءهن الرجل من وراء الحاجز وسالهن ماذا تطلبن فقلن من فم واحد — نريد خبزاً نريد خبزاً

فاجاب المسيو سن بريست بغضب قائلاً : لما كان لكم رئيس واحد لم تجوعوا قط اما الآن ولكم مئات من الرؤساء (يعني النواب في المجمع الوطني) فانكم تموتون جوعاً

قال هذا ثم عاد ادراجه بعد ان اوصى بابقاء الحاجز مقفلاً والنساء يصرخن صراخاً هائلاً

وبعد برهة قدم النساء وفدهن وهو مؤلف من ١٢ امرأة تتقدمهن بائعة الزهر كما مرَّ بنا · وكان معهن رئيس المجمع الوطني المسيو مودون الذي اقنعه مايار برئاسة هذا الوفد والامتثال به لدى الملك

ولكن ما وصل الوفد الى حاجز القصر حتى ظهر الملك عائداً من الصيد بدعوة الكونت دي شارني · ولما دخل الى قصره سمع ضوضاء شديدة من جهة الجمع وصراخاً عظيماً

ذلك ان الحرس الملكي آلى على نفسه ان لا يترك الوفد النسائي ورئيسه يدخلون الى القصر فحملوا عليهم واطلقوا بنادقهم بينهم فسقط رئيس المجمع الوطني من الصدمة وجرحت امرأتان من الوفد برصاص الحراس

فلما سمع الملك هذا الامر غضب وصاح برجاله ان يفتحوا الحاجز على عجل ويوصلوا ذلك الوفد اليه · فبادر شارني وجيلبار لانفاذ امر الملك ومنع الحرس من مقاومة جمهور الشعب

وهكذا دخل وفد النساء تتقدمه بائعة الازهار · فدنت هذه من الملك خائفة مرتعدة فلم تتمكن من ان تلفظ غير هذه الكلمات · ياجلالة الملك نريد خبزاً · ثم سقطت مغمى عليها من الضعف والتعب والخوف والجوع

فبادر الملك واندري لاعانتها اما الملكة فبقيت كالصنم جامدة في مكانها

فاخذ الملك الابنة بين ذراعيه واخذوا ينشقونها الارواح لتفيق · ثم لما انتبهت ورات نفسها بين يدي الملك خجلت وهمت بتقبيل يديه · فقال لها الملك اطمأني يا بنية ودعيني اقبلك · ثم قبلها · فقالت الابنة مولاي اذا كنت كريم الخلق الى هذا الحد فلماذا لا تصدر امرك · فقال الملك بماذا يا بنية · قالت بجلب الخبز الى باريز فاننا نموت جوعاً فيها فقال الملك اذا كان الجوع يذهب بامر اصدره فساصدره في هذه الساعة يابنية

ولكن لم يتم الملك كلامه حتى سُمع صوت البارود من جهة ساحة القصر فاجفل الملك وبعث جيلبار ليستخبر له

وكان سبب هذا الطلق ان المسيو سافونيير احد ضباط الحرس رفع يده ليضرب جندياً كان يحمي امراة منه فسدد رجل من الشعب بندقيته الى اليد المرفوعة واطلق النار

عليها فكسرها

فلما ابصر رجال الحرس ما اصاب احد ضباطهم جاوبوا باطلاق بنادقهم على الشعب المجتمع بين نساء ورجال · فسقطت امراتان على الارض واحدة قتيل والثانية جريح

فجاوب الشعب باطلاق النار فسقط من الحرس اثنان عن جواديهما قتيلين

ثم ساد الهياج وقامت القيامة فاتى الشعب بمدفع كان معه وصوبه الى القصر ثم ادنى النار من خزانة بارودة · ولكن من حسن الحظ ان المطر كان يهطل في تلك الساعة فلم يشتعل البارود لانه كان مبتلاً

ولما وقف جيلبار على كل هذه التفاصيل علم ان الموقف حرج جداً فحار في امره واذا برجل يهمس في اذنه قائلاً : ان الجنرال لا فاييت قادم فاركض واستعجله فانه لا يسكن هذه الحركة احد سواه

فالتفت جيلبار ليرى هذا الناصح فلم يعرفه ولكنه رأى النصيحة في محلها ففتش ليرى جواداً فوجد الجوادين اللذين قتل فارساهما فانفرد باحدهما وامتطاه ثم سار به ينهب الارض نهباً

فهمّ الجواد الثاني ان يلحق برفيقه ولكن بعضاً من الشعب اوقفوه · فظن جيلبار انهم دروا بسبب سفره فارادوا اللحاق به على ذلك الجواد ليمنعوه منه · فالتفت ليرى ما وراءه فابصرهم يقبضون على ذلك الجواد ويحيطون به من كل جانب

ذلك انهم جياع ويطلبون ذبحه ليأكلوه · فما لبثوا ان ذبحوه وسلخوه وقطعوه

وكان الملك في هذه الساعة يوقع على امرين · الاول للفتاة بائعة الازهار ومفاده جلب الخبز الى باريز والثاني للمسيو مودون رئيس المجمع الوطني ومفاده موافقة الملك على اللائحة التي سماها المجمع « حقوق الانسان »

وبعد توقيع الملك على الامر بجلب الخبز حسب النساء انهن نلن ما كنّ يطلبنه فاجتمع الف واحدة منهنّ وعدن مع بائعة الازهار الى باريز ومعهن امر الملك بجلب الخبز وهن يرفعنه في الهواء فوق الرؤوس ويهتفن للملك ابتهاجاً وسروراً

اما من بقي من النساء والرجال فانهم لبثوا حول القصر يزئرون كما تزئر الاسود في الغابات

واما جيلبار فانه ما زال مغذاً السير حتى ادرك لا فاييت وهو قادم مع جنده الى فرساليا كما مرّ بنا· فاطلعه الدكتور على التفاصيل التي مرّت واستعجله الى فرساليا لمساعدة

الملك فسار لافاييت مع جنده ركضاً

وكانت الملكة في ذلك الوقت تطلب من الملك ان يركب معها ومع ولديها مركبة ويسافر بهم الى رامبوليه اجتناباً لما عساه ان يحدث في فرساليا ولاسيما بعد وصول الباريزيين اليها لانها كانت قد علمت بسفرهم من باريز

فالتفت الملك الى دي شارني وساله ما رايك في السفر فقال شارني رايي انه موافق وغير موافق · موافق اذا كانت جلالتك تضمن انها تستطيع اجتياز الحدود في وقت قريب · وغير موافق اذا كان غير ذلك

فقال الملك اذاً فالاحسن البقاء ههنا

قال ذلك لا لرغبته في الاقامة في فرساليا ولكن لعدم اقدامه على السفر منها

وما زال لافاييت سائراً حتى وصل الى قصر الملك وكان الهياج لا يزال سائداً · فدخل جيلبار مسرعاً وابلغ الملك خبر وصول لافاييت

وكان الملك لا يحب لا فاييت ولكنه لا يكرهه · اما الملكة فانها كانت تكرهه ولا تطيق رؤيته

ولذلك سكت الملك والملكة حين ابلغهما جيلبار خبر وصول هذا الرجل مع انه كان قادماً لانقاذهما

فاعاد جيلبار قوله ان الجنرال لافاييت قد حضر فهل للملك امر يصدره

فقال الملك حينئذٍ اشكروه من قبلي وقولوا له ان يدخل

وبعد برهة دخل لافاييت وكانت الملكة قد تنحت عن الملك واحاط بها ضباط القصر فلم يبقَ حول الملك الا جيلبار وشارني

فلما دخل لافاييت صاح صائح من حول الملكة

— قد اتى كرمويل

وكرمويل هو زعيم الثورة الانكليزية التي شبت نارها في عهد شارل الاول سنة ١٦٥٢ وهو الذي اعدم هذا الملك

فاجاب لافاييت · « ولكن كرمويل لم ياتِ الملك شارل الاول منفرداً وحده »

واما الملك فانه التفت الى ذلك الضابط الذي قال عن لا فاييت ذلك القول ليرى من هو ذلك الجاهل الذي يسيء في تلك الاوقات الصعبة الى الذين يستطيعون نفع الملك والملكية · ثم التفت الملك الى دي شارني وقال · انني باقٍ هنا

ايها الكونت لان الجنرال لافاييت قد اتى فاصبحنا في امن من كل طارىء فقل للجند ان يرتدوا الى رامبوليه ودع الحرس الوطني يحرس خارج القصر والحرس الملكى يحرس داخله . اما انت ايها الجنرال فاتبعني ثم سار به و بالدكتور جيلبار الى غرفة مجاورة

وكان الشعب في تلك الساعة يضرم حريقة كبيرة ليشوي على نارها لحم الجواد الذي ذبحه ليسد بلحمه رمقه

الفصل العشرون

(الليلة الهائلة)

من ٥ الى ٦ اكتوبر سنة ١٧٨٩

وانقضى النصف الاول من تلك الليلة هادئاً ساكناً . وكان المجمع الوطني مهتماً بحوادث النهار وقد طالت جلسته الى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . فارسل ساعتئذٍ من قبله حراساً ليطوفوا حول القصر و يفتقدوا الراحة والامن فعادوا وابلغوا المجلس ان النظام تام وكل شيء في موضعه فتفرق الاعضاء مستريحي الخواطر

ولكن ما علموا انه عند صفو الليالي يحدث الكدر

فان ذلك السكون كان سكوناً غيرطبيعي كالسكون الذي يتقدم الزوبعة اذ بعد اعمال المحركين في النهار جاءت نوبة المحركين في الظلام

ذلك ان في كل الحركات الاجتماعية والثورات السياسية يوجد عاملان مستقلان الاول عامل الذين يديرون الحركة و يقصدون بها بلوغ غرض معلوم فمتى بلغوه اوقفوها والثاني عامل الذين ينتبهون عند حركة هولاء ولكنهم لا يقفون بوقوفهم بل يتقدمون مسرعين و يعملون اعمالاً ترتجف لها الابدان

الاولون يعملون الاعمال السياسية والاخرون يعملون الاعمال البربرية

وهكذا جرى في ذلك اليوم . فانه بعد منتصف الليل وصل الى فرساليا جماهير من العامة مائجة هائجة . كانها حيتان البحار خرجت من الاعماق الى سطح الماء تلتمس الجيف الطافية عليه . لقد حضرت هذه الجماهير سقوط الباستيل ولكن الباستيل حجارة لا تُنهب واما قصر الملك في فرساليا فهو ملآن بالنفائس والتحف الثمينة . لذلك اتت هذه الحيتان للنهب والسلب بعد الذين جاءوا مستغثين مستنصفين

وكان القصر الملكي هادئاً ساكناً لا تُسمع فيه الا اصوات اقدام الحراس وقد نام

الملك من اول الليل واما الملكة فكانت مضطربة هائجة · وفيما هي داخلة الى قصرها عائدة من قصر الملك وجدت جورج دي شارني اخا الكونت دي شارني واقفاً يحرس الباب المؤدي الى غرفتها · وكان متاثرًا مضطربًا فسالته الملكة كيف انت ايها البارون قال الشاب بخير ياسيدتي ومستعد لبذل حياتي في سبيلك فقالت واين الكونت اخوك قال هو الآن ساهر امام غرفة الملك لحراسته كما اسهر انا ههنا · قالت وزوجته اندري قال قد دخلت الى غرفة جلالتك وهي في الانتظار داخلاً

فمدت الملكة يدها الى الفتى قائلة شكرًا لكم فان اسرتكم قد غمرتنا بالجميل · فاجاب الشاب ان اليوم الذي اسفك فيه ياسيدتي دمي فدى عنك فذلك يوم يكون سعيدًا عندي

فكأن هذا الشاب كان يقرأ في صفحات الحوادث المستقبلة

ثم دخلت الملكة فوجدت اندري عندها فحيتها ولاطفتها ودخلت الى غرفتها · ثم انطفأت انوار القصر ونام كل من فيه غير الحراس كما ذكرنا

ولكن في الساعة الخامسة ونصف من ذلك الليل والجميع نيام في القصر سُمع في فنائه صوت طلق ناري قوي فدوت جوانب القصر كلها

وكان السبب في ذلك ان اربعمائة او خمسمائة صوت من الحيتان البشرية التي اشرنا اليها قصدت في تلك الساعة حاجز القصر وتسلقته بسرعة غريبة تفوق سرعة القرود وهي ساكتة مختلسة الخطى ورامت الدخول الى القصر اختلاساً فابصرها الحارس الذي كان واقفاً يحرس المكان فصوب بندقيته اليها واطلقها بينها

فدوى المكان لصوت البارود وسقط رجل من تلك الجماهير قتيلاً

فافترق حينئذ اولئك الناس فريقين وسارا ركضاً الواحد الى قصر الملك والثاني الى قصر الملكة

فلنتبع الفريق الاول

وكان امام غرفة الملك حارس واقفاً يحرس وهو يخطر ذهاباً واياباً · واذا به يسمع ضوضاء شديدة واصوات صعود على السلم فتقدم مسرعاً وبندقيته في يده فابصر بعيدًا عنه قوماً راكضين وهم سكوت لا يتكلمون فصاح ملء فمه الصياح النظامي المالوف « من القادم » فلم يجبه احد· فصاح بصوت اقوى — من القادم · ثم صوب البندقية الى اولئك الصاعدين

ولكنه رأى ان صوت البارود في منزل الملك يقلق القصر كله فتناول سيفه وهجم قائلاً — ماذا تريدون ايها السادة

فاجاب بعض الصاعدين متهكمين — لاشيء لا شيء دعنا نمرّ فاننا من اصدقاء جلالته ·

فصاح الحارس ولكن من انتم

فلم يجبه حينئذٍ احد ولكن ضحك الجميع ضحكة هائلة ارتج لها المكان · فزاد الحارس هجوماً وسيفه في يده

فحدث حينئذٍ حادث مريع · امواج بشرية كانت صاعدة كالجبال على السلم وليس في وجهها غير رجل واحد يمنعها من المرور بضربات حامية

ولكن لم يطل هذا العراك حتى تنبه باقي حراس المكان فركض احدهم صارخاً — انجدوا انجدوا الكونت دي شارني

وكان الحارس الذي وقف في وجه الهاجمين هو الكونت دي شارني

فبادر الحراس الى مساعدته ولكن الملك كان قد استيقظ مرعوباً مدهوشاً فلما بلغه الخبر اصدر امره في الحال بان يدخل الحراس من وجه الهاجمين ويقفلوا الابواب

فاطاعوا وكان دي شارني آخر الداخلين

فاخذ الهاجمون يقرعون الباب ويضربونه بالفؤوس ليكسروه فامر دي شارني ان يوضع وراءه كل ما في المكان من الخزانات والمقاعد والمساند حتى اذا كسروه وجدوا وراءه منها باباً ثانياً

هذا ما جرى في قصر الملك · فلنتبع الآن الذين هاجموا قصر الملكة

فانهم ما وصلوا الى حيث كان الفتى جورج شارني واقفاً حتى صاح بهم الصياح المالوف « مَن القادم » ولما لم يجبه احد منهم فوق اليهم بندقيته واطلقها فسقط احدهم قتيلاً

فارتعد المكان وانتبهت النساء واندري من النوم ففتحت اندري الباب ومدت منه راسها وعليه الاصفرار ولوائح ثبات الجاش فرأت الفتى جورج وحده بين اولئك الذئاب وهو يدافعهم عن نفسه وعن الطريق مدافعة الاسود فصاح بها · مدام · ابلغي الملكة انهم يريدون الفتك بحياتها ثم خذيها واذهبا معاً من حيث تقدران فانني استطيع الثبات في وجوههم ولو قُتلت حتى تتمكنا من النجاة · اسرعا اسرعا

فاغلقت اندري الباب · ودخلت مسرعة فصاح جورج اقفليه جيداً واسرعا لئلا يفوت الوقت

ولما دخلت اندري الى غرفة الملكة وجدتها قد انتبهت من النوم وهي تلبس ملابسها مسرعة وقد علمت بكل شيء . وبعد ان فرغت من لبس ملابسها سارت مع اندري ركضاً وخرجتا من دهليز سري في داخل المكان قاصدتين قصر الملك . وقد اقفلت اندري ابواب الدهليز بعد اجتيازه مخافة ان يلحق بهما الثائرون اذا كانوا قد خلصوا من جورج شارني وكسروا ابواب القصر

الفصل الواحد والعشرون

(طلوع الصباح)

وكان الكونت اوليفيه دي شارني ينتظر الملكة عند الحد الفاصل بين القصرين علماً منه بانها لا بد ان تاتي من ذلك المكان السري فلما وصلت اليه ماري انطوانت وابصرت ثيابه المخضبة بالدماء صاحت مذعورة — اين الملك . فقال لا تخافي ياسيدتي فانه سالم بحمد الله . ثم القى نظرة الى ما وراء الملكة فعلمت الملكة انه يفتش عن اندري فتنهدت وقالت بنزق لا تخف فانها قادمة . ثم خفت الى ابنها ولي العهد واخذته بين ذراعيها

وكانت اندري قد تأخرت لانها كانت تقفل الابواب فلما عادت وجدت الكونت واقفاً ينتظرها فابتسم كل واحد منهما ابتساماً دلّ على ما في خاطره ودخلا في اثر الملكة

فوجدا الملكة تنادي — الملك الملك اين الملك . فاجاب شارني — ان جلالته يفتش الآن عنك فانه ذهب اليك من دهليز بينما كنت آتية من دهليز ثانٍ

وفي هذا الوقت اشتد الصياح في الخارج وسمعت الملكة الهاجمين يصرخون — لتسقط النمساوية . لتسقط مدام فتو . يجب ان نخنقها ونشنقها

ثم سُمع صوت طلق ناري . ذلك ان احد الواقفين وراء الباب المحصور اطلق رصاصتين على خشب الباب فخرقت الرصاصتان الخشب ومرت احداها على بعد بضع اصابع من راس ولي العهد

فصاحت الملكة وهجمت على ابنها قائلة — يا الهي لقد قُضي علينا بالموت . فاشار حينئذٍ شارني الى الحراس فهجم منهم خمسة واحاطوا بالملكة والولدين وقاية لهم

فدخل الملك في هذه الساعة بخطى ثقيلة والاصفرار في وجهه والدموع في عينيه فطارت الملكة حينئذٍ ركضاً اليه والقت بنفسها بين ذراعيه صائحة — سالم والحمد لله .

فقال الملك · نعم سالم والفضل في ذلك للكونت شارني · وانت سالمة ايضاً · فقالت نعم سالمة والفضل بذلك لاخيه البارون دي شارني

فنظر الملك الى الكونت ثم مد اليه يده مصافحاً وقائلاً لقد غمرتنا اسرتكم بفضلها ايها الكونت حتى اننا اصبحنا عاجزين عن مكافأتها .

اما الملكة فان نظرها التقى حينئذٍ بنظر اندري فحولت وجهها خجلاً

ثم ازداد هياج الهائجين خارجاً فاشتد ضربهم الباب بالعصي والحراب والفؤوس وكثر لغطهم

فصاح الكونت دي شارني بالحراس · ايها الحراس شدوا عزائمكم فانه يجب علينا ان نثبت امامهم ساعة على الاقل وبعد ذلك لا بد ان ياتينا مدد · ونحن هنا سبعة جنود فلا يستطيعون قتلنا كلنا في اقل من ساعة

ثم بادر الى خزانة كبرى كانت في زاوية المكان فحملها ووضعها ايضاً خلف الباب المحصور · فحذا باقي الحراس حذوه حتى لم يبقَ في الغرفة شيء الا ووضعوه وراء ذلك الباب · ثم كمنوا وراء تلك الاشياء وسددوا بنادقهم الى الباب من فوقها

اما الملك فانه دخل الى غرفة مجاورة ليحرق بعض الاوراق السرية لئلا يستولي الهاجمون عليها اذا استولوا على القصر · واما الملكة فانها اخذت ابنيها بين ذراعيها ووضعت يديها على راسيهما واخذت تصلي

فكانت تلك الساعة من اشد الساعات هولاً واكثرها تاثيراً في النفوس

وكان يخيل للمحصورين ان كل دقيقة تذهب انما تذهب من عمرهم الذي اصبح قصيراً · وقد اشتدت الضربات على الباب بالفؤوس والمعاول حتى تطايرت منه بعض الشظايا وانفتحت الثغور فيه · فحينئذٍ مدّ الجنود بنادقهم من هذه الثغور واطلقوها على المجتمعين وراء الباب فقتلوا بعضاً منهم · فجاوبهم الثائرون باطلاق الرصاص على الباب فمزق الرصاص الخشب وراح يصدم ارض الغرفة وسقفها وجدرانها

ثم استمر القتال على هذا المنوال والهياج بالغ مبلغه والناس لا يزالون يضربون الباب من الخارج حتى نفد الرصاص من الحراس · وكان الثائرون قد كسروا الباب والخزانة التي وراءه فبانت منها وجوههم الوحشية الهائلة فاخذ الحراس يدافعونهم عنها بالحراب منعاً لهم من الدخول · ولكن شارني ادرك انهم كادوا يخسرون كل شيء فخف الى الملك وقال له — تفضل يامولاي وادخل الى الغرفة المجاورة مع الملكة والولدين واثنين منا فاننا نثبت هنالك

ساعة كما ثبتنا هنا ساعة

فتردد الملك في ذلك اذ خجل ان يفر من مكان الى مكان ويختبئ وراء الابواب والاثاث . ولو لم تكن الملكة معه لما خطا خطوة واحدة . وكذلك الملكة لو لم يكن معها ولداها لما طاوعت الملك على ذلك . ولكن في نفوس جميع البشر ملوكاً كانوا او عبيداً ابواباً تخرج منها الجرأة ويدخل فيها الخوف في بعض الاحوال

فرضي الملك واصدر امراً بالارتداد الى الغرفة الخلفية للتحصن فيها

ولكن لم يكد الملك يصدر هذا الامر حتى هدأت الحركة والجلبة وراء الباب المحصور وانسحبت الحراب والرماح التي كانت ممدودة من الثغور . فعجب الجميع واصغوا فسمعوا صوت اقدام متوازنة يشبه صوت مشي الجنود

فصاح الكونت دي شارني هذه جنود الحرس الوطني . ثم سكنت الغوغاء سكوناً تاماً كأن المجتمعين قد تفرقوا

وبعد هنيهة دنا رجل من الباب وصاح مسيو دي شارني مسيو دي شارني ثم ظهر من احد ثغور الباب وجه بيلو القوي

فصاح الكونت دي شارني بيلو بيلو هذا انت ايها الصديق . فقال نعم اين الملك والملكة . فقال هنا . قال ماذا حدث لهما . قال لا شيء بل هما في خير وسلامة

فصاح بيلو ملء فمه — نحمد الله على ذلك . ثم نادى — يامسيو جيلبار

فما لفظ بيلو هذا الصوت حتى تحرك في الغرفة قلبان حركة مختلفة . الاول قلب الملكة والثاني قلب الكونتس اندري . فابصر الكونت دي شارني اضطرابها واصفرارها فتنهد وسكت لانه كان لا يدري السبب

فتقدم الملك في تلك الساعة وقال افتحوا الباب ايها الحراس فبادر الحراس الى رفع قطع الاثاث والخشب التي كانت وراءه . ثم سُمع صوت لا فاييت صارخاً يقول

ايها السادة جنود الحرس الوطني : لقد وعدت الملك امس وعد حرٍ بان لا اترك احداً يمس كل ما هو ملكه فاذا تركتم احداً من الشعب يقتل احد حراسه فانني اخلف بوعدي فاصبح غير اهل لان اكون رئيساً لكم (يعني انه يستعفي من وظيفته)

ولما فتح الباب دخل لافاييت وجيلبار ووراءهما بيلو الذي كان فرحاً بخلاص الملك لانه هو الذي ذهب وايقظ لافاييت من النوم . فهجمت مدام عدلايد على لافاييت وعانقته قائلة — انت الذي انقذتنا ايها الجنرال . فتقدم لافاييت نحو الملك فعارضه احد

الحراس قائلاً — هل معك ورقة دخول على الملك ياسيدي · فنظر اليه الملك ثم خف الى لافاييت مادًا اليه يده وقائلاً — اذا لم يكن معه ورقة دخول فها انني اعطيه اياها

فصاح بيلو من وراء لافاييت — ليحيى الملك لتحيى الملكة

فالتفت الملك عند سماعه هذا الصوت وقال هذا صوت قد سمعته قبل الآن

فقال بيلو مسرورًا نعم ياذا الجلال فانك سمعته على طريق باريز آه ليتك يامولاي بقيت في باريز

فعبست الملكة لهذا الكلام · واما الملك فقال للافاييت مستفهماً · ماذا يجب ان نصنع الآن ايها الجنرال · فقال لا فاييت ارى الآن من النافع ان تظهر جلالتك للشعب من شرفة القصر (البالكون)

فنظر الملك الى جيلبار نظرة يستشيره بها ثم انه لما لم يرَ ممانعة اتجه نحو النافذة ففتحها وخرج الى احدى الشرفات مطلاً على الشعب ·

فخرج حينئذٍ من الوف الشعب التي كانت متجمعة هنالك صوت عظيم طبق السماء اذ صرخوا كلهم قائلين — ليحيَ الملك ليحيَ الملك

ثم تلاه صياح آخر — الى باريز الى باريز

وتلاها صياح ثالث — الملكة نريد الملكة

ولكن ما صاح الشعب نريد الملكة حتى اقشعرت جلود جميع الواقفين حول الملكة واصفرت وجوههم كلها حتى وجه الملك والملكة نفسها · اذ كيف يمكن ان تخرج الملكة لمقابلة ذلك الشعب الذي كان قبل بضع دقائق يصيح و يصرخ طالبًا ان يخنقها و يشنقها · الا يُخشى ان تطير من بين الجموع رصاصة فتقضي عليها

ولكن الشعب كان شديد الاصرار فاخذ يصرخ من جديد صراخًا اقوى ـ الملكة الملكة

فالتفت لافاييت اليها وقال ـ ان الشعب يطلب ان يراكِ يا مولاتي

فصاحت ابنتها ـ لا لا · لا تذهبي يا امي· ثم عانقتها كانها تريد ان تمنعها من الخروج الى الشرفة · فنظرت الملكة الى لا فاييت وهي ساكتة · فقال لافاييت لا تخافي ياسيدتي · فقالت الملكة ولكن كيف اذهب وحدي

فابتسم لا فاييت اذ فهم مرادها · ثم دنا من الولدين فاخذهما منها بلطف واحترام ودفعها امامها الى البالكون · ثم قدم اليها يده قائلاً ـ اتكلي عليَّ ياسيدتي فاتحمل تبعة كل امر· ثم دخل معها و وراء الولدين الى الشرفة وهي مستندة الى ذراعه

فكان منظر جميل وعظيم معاً ٠ فان الشعب كان تحت شرفة القصر كالبحر العجاج المتلاطم الامواج ٠ وكانوا كلهم مشرأبي الاعناق ينظرون الى الشرفة وينتظرون الملكة ولما ظهرت لهم هاجت نفوسهم وصاحوا صيحة لم تسمع الاذان مثلها ٠ ولكن لا يعلم احد اذا كانت هذه الصيحة صيحة سرور وفرح او صيحة تهديد ووعيد

فاخذ حينئذ لافاييت امام الشعب يد الملكة وقبلها ٠ فطرب الشعب ساعتئذٍ وهتف هتاف السرور واخذ يصفق ابتهاجاً وحبوراً

فتنفست الملكة الصعداء كأن خاطرها اطمأن بعد قلقه وقالت ـ يا لهذا الشعب الغريب

ثم اجفلت وقالت للافاييت ٠ حرسي ٠ حرسي ايها الجنرال فانهم انقذوني من الموت افلا تستطيع ان تصنع شيئاً من اجلهم٠ فاجاب لا فاييت نادي احدهم ياسيدتي

فصاحت الملكة ٠ كونت دي شارني ٠ كونت دي شارني

فادرك الكونت غرض الملكة فرجع الى الوراء لانه كان يرى نفسه غير مذنب فلا حاجة به اذاً للصفح والعفو ٠ وكان ذلك راي زوجته الكونتس اندريه ايضاً ٠ فانها حين صياح الملكة مدت يدها نحوه كانها تريد صده عن الذهاب الى الشرفة فالتقت يدها بيده فتضاغطتا ٠ فابصرت الملكة ذلك فثار ثائر غضبها ونادت بغيظ احد الحراس القريبين منها ـ تعالَ الى هنا ايها الحارس

فذهب الحارس الى الشرفة ٠ فاخذه لا فاييت على انفراد امام الشعب ثم تناول الشعار الوطني المثلث الالوان من قبعته ووضعه في قبعة الحارس وقبلة في وجهه

فصرخ الشعب صراخاً هائلاً ـ عاش لا فاييت ٠ عاش حرس الملك

فقال لافاييت ٠ قد ذهب الخوف الآن وعادت ايام الصحو ايتها السيدة

ثم خرج مع الملكة والولدين من الشرفة الى القاعة حيث كان الملك ٠ فقال لافاييت ولكن رغبةً في ان لا تعود ايام القلق والاضطراب اطلب من جلالتكم امراً

فقال الملك قل ماذا تطلب ايها الجنرال

فقال لا فاييت اطلب ان تسافروا الى باريز٠ فقال الملك لك ما تشاء فاعلن الشعب انني مسافر اليها مع الملكة وولديَّ بعد ساعة واحدة ٠ ثم التفت الى الملكة وقال — اذهبي الى قصرك ايتها السيدة واستعدي للسفر

وكأن هذا الامر اذكر الكونت دي شارني امراً ثانياً ٠ فما تحركت الملكة للذهاب

الى قصرها حتى سبقها الكونت اليه · فقالت الملكة بغضب لانها كانت ساخطة من رفضه الذي تقدم الى اين انت ذاهب ايها الكونت · فقال عفواً يامولاتي فان لي حاجة في قصرك ولكنني لا اطيل الاقامة فيه

ثم سار طالباً حاجته والملكة في اثره

ولما فتح جميع الابواب التي كانت اندري قد اغلقتها ووصل الى الباب الذي هجم الثائرون للدخول منه الى الملكة والكونتس اندري جعل يفتش بنظره في ذلك المكان وهو طائش الافكار والملكة وراءه ترى ماذا يطلب · واذا به يعثر بشيء برجليه في ظلمة الدهليز · فانحنى ليرى الشيء الذي عثر به واذا به جثة انسان · فالوى على وجهه ليراه ثم قال بصوت خافت حزين ــ وجدتُ ياسيدتي ما كنتُ اطلبه

وكانت هذه الجثة جثة اخيه المسكين البارون دي شارني وقد قتل في الدفاع عن الملكة·

الفصل الثاني والعشرون

(امام جثة)

اختلف الرواة في رواية هذه الحادثة التي يحسبها المؤرخون من اعظم الحوادث التي حدثت في اعظم ازمان الثورة الفرنسوية اي الزمن الذي بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٦ وتعددت رواياتهم· ولكن ماذا تنفع الروايات وان كثرت وماذا ينفع التاريخ نفسه· هل استفاد الملوك عبرة منه فاجتنبوا السير على الطريق التي سار عليها الملوك الذين كتب لهم السقوط· هل اثرت دماء اولئك الملوك التي سُفكت ودموعهم التي اذرفت قدر ما تؤثر نقطة من ماء المطر في وجه الارض· بكى الملوك وخافوا وسفكوا دماءهم ولكن كل ذلك لم يجدِ الملوك نفعاً · واخلصت الرعية وسفكت دماءها في سبيل الدفاع عن ملوكها وكل ذلك لم يجدِ نفعاً · بل حملت زوبعة العالم الهائلة تلك الدماء والدموع والذنوب والمسرات فمزجتها معاً واسفتها في الفضاء الى حيث لا شيء يؤثر فيها او تؤثر فيه · فيا للتلاشي · يا للعدم · يا لضعف القوة البشرية

وبعد انقضاء ساعة على هذه الحادثة كان الملك سائراً مع الملكة وولديه الى باريز عملاً بارادة الشعب تاركاً فرساليا التي كتب له ان لا يعود اليها فيما بعد · وبينما هو سائر على طريق باريز كان في قصر الملكة في فرساليا منظر يفتت الاكباد

فقد كان الكونت دي شارني : محنياً على جثة اخيه الشاب جورج الممددة في ارض

الدهليز ووراءه رجلان واقفان وقفة الحزن والتأمل

وكان هذان الرجلان الدكتور جيلبار و بيلو

اما الكونت دي شارني فكان جاثياً امام الجثة بنفس ملئها مرارة الموت وهو يتأمل في ذلك الثوب الترابي الذى طارت منه روحه · يتامل الجروح الكثيرة التي في راسه وصدره والتي منها سال جميع دمه· يتامل ملامح الكبرياء والشمم التي رسمها الموت على وجهه· ملامح اليأس في الدفاع · ملامح من يعلم انه مائت· يتامل ذلك الشاب الذي لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره وقد حارب مئات وهو واحد · يتامل تلك القوة التي اوقفت وهي في ابان عزمها · والهمة التي انحلت قبل ان تبلغ اشدها · والروح التي جادت بنفسها فدى ملكها وملكتها · فيخال له ان تلك الجثة الهامدة مكللة باكليل بهي من الشباب والجمال والامانة والاخاء والايثار ومعرفة الواجبات · فياخذها بين يديه ويضمها بحرقة زائدة

ثم يقول بصوت خافت وقلب محترق ــ مات · مات · واحسرتاه عليه

فلم يستطع بيلو صبرًا على هذا المنظر فانزوى في زاوية اخفاء لتاثره ودموعه · واما جيلبار فازداد تاملاً وتفكرًا حتى اصبح بازاء الاخوين صنماً جامدًا لا يتحرك منه شيء غير قلبه · وكان كفيلسوف يروقه ذلك المنظر ويسوءه معاً · يسوءه لان اخاً كان يحترق على اخيه · ويروقه لانه رأى فيه كيف يكون الحب الاخوي وبذل الذات في سبيل القيام بالواجبات

وبعد مرور زمن على اوليفيه وهو جاث فوق جثة جورج نهض الشاب واخذ الجثة بين يديه ثم اوقفها على الجدار واخذ ينظر اليها · ثم وضع يديه على عينيه فمسحها ورام الخروج من المكان · فخيل له حين خطا الخطوة الاولى ان اخاه جورج سيتبعه

ثم التفت الى ذلك الاخ الجامد الساكن وتنهد ثم خرج

فتقدم بيلو بعد خروج شارني من الدكتور جيلبار وقال طاوياً يديه على صدره · قلت لك يوماً من الايام ايها الدكتور انني انفت من قتل القتلة الثائرين بعض الاشرار فما قولي الآن وقد اخذوا يقتلون الابرياء· ثم اشار بيده الى جثة جورج

وكان الدكتور جيلبار صنماً لا يتحرك كما ذكرنا · فلما سمع قول بيلو اجاب · وماذا تعني بذلك يا بيلو · فقال اعني بذلك انني سئمت باريز وفظائعها وازددت رغبة في العودة الى مزرعتي

فرفع جيلبار حينئذٍ راسه وقال ـ عافاك الله يا بيلو · فانك بعد ان تكون قد هدمت البناء بيديك تود هجر الحرابة والخروج منها قبل اعادة بنائها

فقال بيلو ماذا اصنع فانني لا استطيع رؤية هذه الفظائع · فقال ـ جيلبار بل انك خشيت ان تقع بعض حجارة البناء على راسك

فقال بيلو وهل من سوء الراي ايها الدكتور ان يهتم الانسان قليلاً بنفسه فانني ذو عائلة واملاك وعائلتي تحتاجني في هذه الاوقات· فاجاب جيلبار بلهجة شديدة ـ ولكن الا تعلم يا بيلو ان الانسان لوطنه قبل عائلته

فقال بيلو نعم ولكني لا اخالك ترضى ان يراك ابنك مكان هذه الجثة او ترى ابنك مكانها · فقال جيلبار · بيلو · بيلو · اعلم انني لو رايت ابني الآن مكانها لنظرت اليه كما انظر الآن اليها · واعلم ايضاً انني اربي ابني تربية تجعله في المستقبل يراني كما اراها متى صرت مكانها

فاحس بيلو بلذع هذا الكلام لانه مع شدة اخلاقه وصلابة نفسه لم يكن قد سمع مثله فقال للدكتور · ولكن قولك هذا بمثابة قولك انك تريد ان تعوده منظر الدماء وان القتل والنهب والسلب كل هذه امور بسيطة يجب ان يشاهدها الانسان دون ان يتاثر لها

فقال جيلبار باقوى صوته ـ كلا ليس هذا المقصود من كلامي يا بيلو· وانما المقصود منه ان مصائب الحياة كثيرة واهوالها عديدة فيجب على الانسان ان يتعلم طرق احتمالها والا ناء بها وسقط تحت حمله · واذا كان القتل والسلب والنهب اموراً فظيعة فاشد فظاعة منها ان نترك القتلة والناهبين والسالبين يعملون هذه الاعمال وننفر من وجوههم بدل مقاومتهم ومنعهم من العودة اليها

فصاح بيلو ولكن ماذا يستطيع رجل واحد ان يصنع وحده· اقدرتُ ان امنع هذا الشاب المسكين ان يُقتل · اقدرتُ على منع اللصوص القتلة الاشرار من تدنيس قصر الملك بهجومهم عليه

فضحك هنا جيلبار وقال يا لنيتك الخالصة واتضاعك ايها الرجل · تقول انك لم تصنع اليوم شيئاً مع انك انت الذي خلص الملك والملكة وولديهما · انسيت انك انت الذي بادرت في صبيحة هذا اليوم الى فراش الجنرال لا فاييت وهو نائم وايقظته ثم اطلعته على هجوم الرعاع على قصر الملك ثم ركضت معه لارجاعهم عنه · افتحسب كل هذا يا بيلو امراً

لا يستحق الذكر . اما كان الملك والملكة وولداهما الآن لولاك جثثاً في هذا القصر كهذه الجثة التي امامنا . فكيف تقول انك لا تستطيع ان تصنع شيئاً للوطن

فسكت بيلو واخذ يفرك جبينه و يفتكر . فقال جيلبار فابقَ اذاً معي يابيلو . ابقَ اذا كنت تحب وطنك وتبغي خدمته . اما اذا كنت تفضل خدمة عائلتك على خدمته فاذهب اليها فانك حينئذٍ تكون غير اهل لحبه ولصداقتي

فرفع بيلو حينئذٍ راسه ومد يده الى الدكتور قائلاً — الحق اقول لك ايها الدكتور انني لا اجادلك مرة الا و ينتهي الجدال بفوزك . ذلك لانك قوي كريم اصيل الراي ثابت العزم . واني لا ارى احداً كذلك في هذا العالم غيرك . فقل لي ما الذي جعلك هكذا

فقال الدكتور بابتسامة اقرب الى الحزن منها الى السرور — المصائب المصائب يابيلو .

فقال بيلو ولكن هذا امر غريب لانني احسب ان المصائب تجعل الناس اشراراً

فقال جيلبار نعم تجعل الناس اشراراً اذا كانوا ضعفاء النفوس . اما الاقوياء فانها تزيدهم قوة . فقال بيلو ولكني اخشى انني اذا بقيت ههنا واصبت بمصيبة اصبحت تعيساً شريراً . فقال جيلبار . لا تخف . فانك قد تكون تعيساً ولكنك لا تكون ابداً شريراً اذ ليس فيك شيء من صفات الاشرار

فقال بيلو . اذاً ابقى معك هنا واذا ظهر مني ضعف فانني استند اليك

فقال جيلبار وانا اقويك حين الحاجة

الفصل الثالث والعشرون

(رجوع بيتو الى حيث يحب)

لقد آن لنا ان نترك باريز وفرسايل ونخلص من انفاس الثورة الجهنمية لنتبع بيتو الذي عاد الى مزرعة بيلو حيث الهدوء والسكينة مصطحباً ابن الدكتور جيلبار الى مدرسة الاب فورتيه بناء على طلب والده كما مرّ بنا . وكان الدكتور قبل سفره بولده قد اوصاه به عدة وصايا اكثرها صحية ووضع في يده قبضة من الليرات تخفق لها قلب بيتو المسكين طرباً . ثم جاء بيلو واخذه على حدة واوصاه بما يريد ان يوصي به امرأته وابنته كاترين وبعد ذلك سار بيتو بالولد سيباستيين وهو مفتخر بان الدكتور جيلبار وثق به وسلمه ولده وكان بيتو لا يزال يلبس في راسه الخوذة العسكرية التي كان يلبسها يوم فتح الباستيل

و يضع على جنبه السيف الذي كان يحمله في هذا اليوم فكان له منظر عسكري يُضحك معارفه و يوجب له اكرام من لا يعرفه

وفي طريقه من باريز الى فيلله كوتره اخذ يقص على الناس الذين يجدهم في طريقه حوادث باريز وتفاصيل ثورتها فكانوا يحيطون به و يصغون اليه باكرام و يدعونه الى موائدهم ومنازلهم مع رفيقه سيباستيين فارتفع بيلو في عيني نفسه وصار يشمخ بانفه كبرياء واعجاباً

وما زال سائرًا برفيقه حتى قربا من فيلله كوتره فاصبح بيتو متاملاً مفكرًا • وعند وصوله الى مفترق الطرق وقف حائرًا فساله سيباستيين ما بك يا بيتو فقال الفتى مترددًا الا ترى بانه يجدر بنا المرور بهرامونت في مسيرنا الى فيلله كوتره

وكانت هرامونت مسقط راس بيتو كما علمنا وفيها دُفنت امه

فقال سيباستيين نعم قد فهمت قصدك هلم نزور القرية التي ربينا فيها • فسرّ بيتو وسار بسيباسيين على طريق هارامونت

ولما دخلا هذه القرية عرضت لبيتو جميع تذكارات ايامه الماضية فتنهد من اعماق قلبه ثم اتجه نحو منزل والدته ليزوره • ولكن عمته انجليك كانت قد باعت هذا المنزل والذي ابتاعه هدمه و بنى غيره • فاستاء بيتو لهذا التغيير الذي حدث ولكنه ما لبث ان اخذ بيد سيباستيين قائلاً ـ تعالَ معي الى المكان الذي لانجد فيه شيئًا متغيرًا• ثم اتجه به صوب مدفن القرية حيث دُفنت امه

وفي الحقيقة ان ذلك المكان مما لا يتغير فيه شيء على مرور الايام بل فيه ثبات الابدية ودوامها • ولكن العشب كان قد نبت كثيرًا على القبر وغصن الصفصاف الذي غرسه بيتو فوق تربة امه قد نبت ونما واصبح شجرة باسقة تتدلى اغصانها فوق القبر

فوقف بيلو هناك برعدة وخشوع ووجهه بين يديه • فصلى اولاً ولما فرغ من الصلاة رفع يديه بقلب محترق وضم بهما الى صدره اغصان الصفصاف المتدلية• فخيل له انه يضم شعر امه • وفي هذه الساعة هبت نسمة على ذلك المكان الابدي فتحركت اغصان الصفصاف فوق راس بيتو وتماوجت تماوجاً لطيفاً فخيل لهذا الابن الامين ان حفيف تلك الصفصافة صوت والدته يدعوه و يدعو له

فزاد بكاؤه• وكان سيباسئيين واقفاً بازائه وهو جامد كالصنم جمود ابيه في مثل هذا الموقف • و بعد هنيهة مدّ بيتو يده وكسر قطعة من غصن الصفصافة ليحمله معه تذكارًا

من امه . ولكن خُيل له بعد كسر هذه القطعة من الشجرة التي تظلل تربة امه باغصانها وتحتضن في جوف الارض تابوتها بجذورها ان امه قد تألمت من الكسر الذي حدث في شجرتها

فياللعواطف الوالدية الكريمة في نفوس الابناء والاباء . اين الذين يقولون انه لا يوجد فضيله ولا حب صادق في هذا العالم

ثم ان بيتو قبل اطراف اغصان الصفصافة مرارًا وخرج مع سيباستين بهدوء وسكون متجهًا نحو فيله كوتره

وحين وصوله اليها قصد مدرسة الاب فورتيه وكان الاب من حسن الحظ غائبًا لانه خرج لينزه تلامذته فسلم بيتو سيباستيين الى اخت الاب فورتيه ودفع اليها اجرة المدرسة وكتاب الدكتور الى ذلك الاب ثم عانق سيباستيين فبكيا كلاهما ولكنهما تواعدا بالاجتماع في كل فرصة و بعد ذلك خرج بيتو من هذه المدرسة

فرأى حين خروجه منها امرًا ادهشه . فان الاهالي كانوا قد دروا بحضوره فاجتمع منهم كثيرون في الساحة التي تلي المدرسة لمشاهدة خوذته وسيفه . وقد عرفوه لانه لم يكن انقضى على سفره من بلدتهم الى باريز الا ٣ اسابيع فقط اما اهالي هارامونت فلم يعرفوه لانه انقضى على سفره من عندهم اكثر من ٣ سنوات

فلما التقى بيتو بمنتظريه بشَّ لهم وسلَّم عليهم فاحاطو به من كل جانب واخذوا يتاملون منظره الغريب . ثم استقصوه تفاصيل باريز فقص عليهم الحوادث وما صنعه بيلو والدكتور وزاد على ذلك انه تعرف بنا كارو بالي ولافاييت فاصبح من اصدقائهم

فاشتدت حماسة الناس وزاد اعجابهم به حين قوله انه من اصدقاء لافاييت ونا كار و بالي واخذوا يدعونه الى منازلهم و يبالغون في اكرامه . اما هو فاعتذر لهم اذ من واجباته مقابلة عمته اولاً ثم ودعهم وسار قاصدًا منزل عمته

فتبعه الجمهور من بعيد اولاً لانهم كرهوا ان يفارقوه وثانيًا لانهم ارادوا رؤية ما يحدث بينه وبين عمته لانهم كانوا يعلمون حوادثها الماضية معه

ولكن لما وصل بيتو المسكين الى بيت عمته وجد الباب مقفلاً لانها كانت غائبة . فجرد بيتو سيفه ودفع طرف القفل براسه فانفتح الباب بالحال

فعجب الواقفون من بعيد للبسالة التي جرد بها بيتو سيفه ولجرأته على فتح باب عمته لانهم كانوا لا يجهلون مبلغ سلطتها عليه

ولكن الثورة الفرنسوية كانت قد غيرت اخلاق هذا الفتى ومن يفتح الباستيل لا يخشى فتح باب العمة انجليك . لذلك دخل بجاش ثابت الى المنزل الذي فتحه . ومن يعرف اخلاق بيتو و يعرف ان السير يستدعي التعب والتعب يستدعي الجوع وان الجوع متى تملك بيتو فهو لا يعود يفتكر الا بارضائه ــ من يعرف ذلك فانه يقول ولا شك ان بيتو يركض الى خزانة الطعام اول دخوله الى منزل عمته . وهكذا كان . ومن حسن حظ بيتو انه وجد في تلك الخزانة صحناً كبيرًا ممتلئاً ارزًا مسلوقاً وفوقه ديك مقلي كبير كانه والارز جزيرة في بحر . اما راس الديك المقلي فقد كان يحكي فوق الارزقمة سوتا في مضيق جبل طارق ...

فمد بيتو الى الصحن يديه الطويلتين المعهودتين واخذ يمضغ ريقه استعدادًا لمضغ ذلك الطعام الشهي . ثم اوقف الصحن على اطراف اصابعه اليسرى وتناول اكبر الملاعق بيده اليمنى وبعد ذلك اتجه الى كرسي العمة انجليك المشهورة بما في جوفها من الكنوز فجلس عليها بعظمة واغمد ملعقته في الارز ولحم الديك فاشبهت يداه وفمه واضراسه وبلعومه في اكله مقاذف تقذف ومغارة تفغر وطاحوناً تطحن و بالوعاً يبلع

غير انه بينما هو في الذاوقات مضغه واذا به يرى خيالاً في الباب فالتفت فرأى وجه عمته

عمته التي يعرف قسوتها وبخلها . عمته التي يعرف شراسة اخلاقها ودناءة نفسها . فضحك بيتو حين رؤيتها ثم نهض مسرعاً والملعقة والصحن في يديه هذا في واحدة وتلك في اخرى فعانقها وضمها ضماً شديدًا الى صدره . فحسبت العمة ان بيتو ينوي الانتقام منها لشدة ما ضمها الى صدره فكادت تصيح لو لم يتركها بيتو و يعود باسماً الى كرسيه وفي يده الملعقة والصحن لاستئناف الاكل

فدهشت العمة من وقاحة هذا الفتى الذي كان منذ عهد قريب كالنعامة تذعره اقل حركاتها. فلبثت محدقة به وهي مبهوتة مستغربة وهو ياكل ياكل ياكل بسرعة كجواد ينهب الارض نهباً حتى انكشف له قعر الصحن و بان اخضراره من تحت بياض الارز

فزأرت العمة انجليك كما تزئر الاسود اما بيتو فضحك كما تضحك القرود فزاد ضحكه سخطها وغضبها حتى لجا لسانها عن الكلام فلم تعد تستطيع ان تتكلم

ولكنها ما لبثت ان شددت عزمها وجمعت قواها واخرجت صوتاً نحيفاً قائلة — لص شقي

فقهقه بيتو ووضع الملعقة في الصحن والصحن على كرسي هناك ثم نهض متنفساً الصعداء تنفس من فرغ من عمله وقال ضاحكاً · لماذا تسميني لصاً ايتها العمة

فزمجرت انجليك وصاحت بصوت مخيف ايضاً ـ يا ابن اللئام

فقال بيتو · هل تسميني لصاً لانني اكلت من طعامك · اذا كان من اجل ذلك فانني صرت في غنى عنك وهذا ثمن ديكك

ثم مد يده الى جيبه لاخراج النقود فحملقت العمة انجليك ولبثت مبهوتة تنتظر ان يخرج بيتو يده بالنقود · فقال بيتو · احسبي ثمن الطعام لادفعه لك · ثمن الارز ٢٠ باره والخبز ١٠ فالمجموع ٣٠ باره

فصاحت انجليك ولكنك احمق مجنون اتحسب ثمن ما أكلت ٣٠ بارة فقط · وقد قالت ذلك بلهجة اليأس والغيظ الشديد

فقال بيتو اما الديك فانه لا يجب ان يُحسب ياعمتي لانه ولا يخفاك ملكي اكثر مما هو ملكك · اما انا الذي سرقته لك لما كان صغيراً · انسيتِ انك ضربتني لانني لم اسرق معه حبوباً لاطعامه فاعطتني يومئذ مدموازل كاترين بعض الحبوب لتخفيف غضبك · فانا اذاً اكلت ما هو ملكي

فنظرت اليه عمته بعين ملئها الغضب والجنون وصاحت بصوت اجش وهي تشير الى الباب ـ اخرج من هنا

فقال بيتو ولكن هذا الامر مهين ياعمتي ولم يبقَ في وسعي احتماله كما كنت احتمله في الماضي · ثم خطا نحو الباب فوقف فيه ونظر الى الخارج فابصر جمهور الاهالي لا يزالون ينتظرون خروجه فحدثته نفسه ان يثأر لنفسه من عمته فرفع راسه ووضع يده على قبضة سيفه ثم نظر اليهم في الخارج واليها في الداخل وصاح بصوت جهوري قوي ـ لماذا تطردينني من بيتك

فعجبت العمة لهذه اللهجة الفجائية اما بيتو فاستانف يقول ـ انني استشهد هولاء القوم الكرام على ما تصنعينه مع احد اقاربك · انا يتيم مسكين جئت ماشياً من باريز فوصلت معي من الجوع والتعب فقصدت ان استريح عندك فكرهتِ ذلك وطردتني

فاخذ المجتمعون يتململون ويظهرون استياءهم فيما بينهم من عمل العمة انجليك فاردف بيتو بقوله ـ طردتني انا الوطني الصادق · انا فاتح الباستيل · انا الذي يشرفني بيلو والدكتور جيلبار بصداقتهما · انا صديق بالي ولافاييت · طردتني فاستشهدكم كلكم

على ذلك

فاشتد استياء الجمهور واخذوا ينظرون الى العمة شرراً نخافت المسكينة منهم ومن هذه الجرأة التي اظهرها بيتو · ثم اردف هذا الشقي بقوله ـ ولكي لا ابقى مديوناً لك بشيء فانني ادفع لك الآن ثمن الطعام الذي اكلته عندك واحاسبك متى اردت على عملك ·

ثم مدّ يده الى جيبه فاخرج ريالاً والقاه امامها وخرج خروج الساخط وجميع الواقفين يستحسنون عمله ويظهرون استياءهم من عمته · فمدت انجليك يدها فتناولت الريال وهي تقول في نفسها انها اخطأت باغضابها بيتو اذا كان يدفع ثمن كل لقمة ريالاً

الفصل الرابع والعشرون

(بيتو وكاترين)

وخرج بيتو من بيت عمته وسار قاصدا مزرعة الاب بيلو اذ بقي عليه القيام بحاجات قلبه بعد قيامه بحاجات معدته

وكان يسير في طريق المزرعة وقلبه يكاد يذوب شوقاً وتذكارا وهو يقول في نفسه ـ غداً استريح من جميع الاتعاب التي عانيتها فاعيش في المزرعة مسرورا هنيء البال · غداً لا يكون همي الا ارضاء كاترين الجميلة وخدمتها والمعيشة تحت ادارتها · وكان كلما ذكر كاترين في نفسه وجد لذكرها ارتياحاً لا يوصف وكلما دنا من المزرعة شعر بازدياد ارتياحه وسروره

ولما وصل الى باب المزرعة كان خبره قد انتشر في جميع الناحية لاستغرابهم ذلك الشاب الطويل الذي على رأسه خوذة تزيده طولا والى جنبه حسام · فدخل بيتو وهو يرفع راسه افتخارا بخوذته وحسامه وعيناه تفتشان عن كاترين قبل كل شيء

وكانت مدام بيلو في المطبخ فاستغربت دخول هذا الرجل الغريب وسالته من هو فرفع بيتو الخوذة عن راسه · فقهقهت مدام بيلو ضحكاً وصاحت ـ بيتو قد جاء بيتو انظروا ملابس بيتو

فاجتمع الخدم وبعض العملة لمشاهدة بيتو فسلم الفتى عليهم بهيئة خطيرة ولبث يفتش عن كاترين بنظره فلم يرَها فتنهد تنهدا خفيفاً

فاجلسته مدام بيلو على كرسي عندها في المطبخ واخذت تستقصه حوادث باريز وتساله عن بيلو زوجها وقد احاط به الجميع فحك بيتو راسه وقال قصتي طويلة يا مدام بيلو

فاذا قصصتها الآن اضطررت الى اعادتها على مسامع مدموازل كاترين

والحقيقة انه قال ذلك لكي ينادوا كاترين

فصاحت مدام بيلو اصبت يا بيتو اين كاترين نادوها . فذهب خادم ثم عاد وقال انه لم يجدها

وفي اثناء ذلك دنا بيتو من النافذة والتي نظرة الى غرفة كاترين في الطبقة الثانية فنظر منظراً جعله مبهوتاً . نظر كاترين جالسة في النافذة العليا وهي مستغرقة في تيار الافكار وموجهة نظرها باهتمام شديد الى جهات الحرش البعيد كانها تراقب شيئاً

فقال بيتو عند ذلك ـ هذه كاترين يامدام بيلو . فدنت مدام بيلو من النافذة ونظرت ثم صاحت باعلى صوتها . كاترين . كاترين

فاجفلت الابنة لمنظر امها ولصوتها واسرعت الى اغلاق النافذة اسراع من يرى نفسه انه قد بوغت مباغتة . فصاحت بها حينئذ امها ـ انزلي يا كاترين فقد جاء بيتو من قبل والدك

فقالت كاترين انها نازلة فاخذ بيتو يتامل ويسأل نفسه ما الذي كانت تنظر اليه كاترين من شباك غرفتها بذلك الاهتمام . الا ان سروره بقرب لقائها وما يعرفه من فرحها بلقائه انسياه ذلك الشغل الوقتي فلبث ينتظر نزولها بقلب يتمشى في صدره تمشياً سريعاً

ثم نزلت كاترين ودخلت الى حيث كان بيتو . فاصبح بيتو وكله عيون تراها . فلم يجد في وجه هذه الفتاة الجميلة ما كان يؤمل ان يراه . نعم ان جمالها بقي كما كان بل زاد ولكن لم يبقَ في وجه كاترين شيء من لوائح اللطف والبشاشة التي كانت قبلاً فضلاً عن ان بياض وجهها الجميل اصبح مشوباً بشيء من الاصفرار وان كان هذا الاصفرار قد زاده بهاء وجمالاً

فاحس بيتو بلذع الم في قلبه . لان كاترين لم تسرع اليه فتلاطفه وتبش في وجهه وتاخذ يده للتسليم عليه بل اكتفت بان نظرت اليه نظرة بادٍ فيها عدم الاكتراث وسالته كيف والدي يابيتو

فقالت لها امها ضاحكة انظري انظري ياكاترين ما اجمل خوذته وسيفه . فرفع بيتو راسه افتخاراً . اما كاترين فاجابت من غير اكتراث ايضاً وما فائدته من هذه الخوذة والسيف

فاجهزت كاترين بكلامها هذا على امل بيتو المسكين فصار يغص بريقه . ولكنه راى

في كلام كاترين اهانة له فاراد فتح باب للحديث ولو كان عتباً وملاماً فقال بعظمة وافتخار

— فائدتي من هذه الخوذة وهذا السيف انني احارب بهما اعداء الوطن

فنظرت اليه كاترين بهدوء دون ان تضحك او تعبس وسألته — ومن هم اعداء الوطن

فقال بيتو ان اعداء الوطن هم الاشراف الذين نذبحهم الآن في باريز

فارتعدت فرائص كاترين وسالته هل يقتل الشعب الآن الاشراف في باريز . كنت احسب ان الفريقين تصالحا وانقضى الخلاف

فقال بيتو وهو يظهر الحماسة — لا صلح ولا اتفاق فان الشعب يشقى والاشراف ينعمون لديهم الاموال والقصور والمركبات والشعب ليس لديه خبز يأكله بل هم الذين يجوعونه . فمن العدل ان يعاقبهم عقاباً شديداً

وقد قال بيتو هذا القول بصوت قوي فاصفرت كاترين ثم عبست وقالت له — ما كنتَ يابيتو خشناً الى هذا الحد قبل سفرك

فصعق بيتو وحار في ما ذا يقول لهذا التوبيخ الشديد وعلم ان كاترين لا تحب مثل هذه الحماسة فقال معتذراً بصوت ضعيف . لم اكن خشناً من قبل سفري ولا من بعده يامدموازل كاترين

فقالت مدام بيلو قاطعة حديثه قص علينا الآن اخبار بيلو زوجي . فقال بيتو . اما هذا فانه يستوجب ان ننفرد للكلام عنه على حدة لان الاب بيلو عهد اليَّ ان ابلغكما امراً سعياً . فاشارت مدام بيلو الى الحاضرين فتفرقوا ولم يبقَ في المكان الا الثلاثة — مدام بيلو و بيتو وكاترين . وكان بيتو يختلس النظر في كل برهة الى كاترين والذي في قلبه من الارتياح والوجد يزداد بزيادة تشاغل كاترين عنه

الفصل الخامس والعشرون

(الابنة مكان الام)

ولما اختلى بيتو بالام وابنتها قص عليهما اعمال بيلو في باريز وكيف كان عازماً على الرجوع الى مزرعته فمنعه الدكتور جيلبار من ذلك ليبقى عونه وساعده . ثم اخبرهما ان بيلو راى ان يريح زوجته لطول غيابه من عناء ادارة المزرعة و يلقي زمامها الى ابنته كاترين لانها لشبابها ونشاطها اقدر على احتمال متاعب الاعمال . فساء ذلك مدام بيلو لاول وهلة ولكنها عادت فتاملت شيخوختها ونشاط ابنتها المقرون بقوتها ومعرفتها فصوبت راي زوجها

ثم انها بعد رضاها اخذت تفكر ملياً وما لبثت ان قالت هذا امر لا يخلو من نظر فانه قد اصبح من واجبات ابنتي كاترين ان تطوف الحقول والغابات وتروح وتجيء وهذا من شؤون الرجال

فقال بيتو على الفور لا تخافي لا تخافي يا مدام بيلو فانني اكون رفيقاً لها حيثما ذهبت فعبست كاترين ٠ فارتجف قلب بيتو المسكين لذلك وقال خائفاً هل ساءك قولي يامدامورل كاترين

فاجابت بهدوء نعم لان ما قلته ثرثرة في غير محلها ٠ فاحمر وجه بيتو ٠ وقالت مدام بيلو صدقت كاترين فانها تأنف من وجود حرس يحرسها ٠ فقال بيتو بلهجة من يقول قولاً وهو يظن انه لا مردّ له ٠ وما قولكِ حين ذهابها في الاحراش والحقول البعيدة الا تحتاج حينئذٍ الى حارس ايضاً ٠ فقالت كاترين اين رايت البنات يامسيو بيتو يسحبن وراءهن شباناً مثلك في كل حركة من حركاتهن ٠ افي باريز رايت ذلك

فكانت هذه الضربة الشديدة كافية لاسكات بيتو المسكين

وبعد ذلك اخرجت مدام بيلو مفاتيح الخزائن والاماكن وجمعت جميع العاملين في المزرعة لتبلغهم ارادة الاب بيلو وتسلم الاعمال الى ابنتها

ولما اخذوا يجتمعون وعلموا بطرف من سبب اجتماعهم اظهروا سرورهم بذلك لانهم كانوا يحبون كاترين و يحترمونها معاً ٠ يحبونها لان هذه الابنة جمعت في نفسها كل الصفات التي تجعل الابنة محبوبة فهي لطيفة كريمة الاخلاق جميلة سخية ٠ ويحترمونها لانها كانت اذا لاطفتهم فانها تصل معهم الى حد معلوم من اللطف لا تتعداه اي انها تبقي دائماً بينها وبينهم حاجزاً

ولم ينفرد العملة في المزرعة بحبها بل ان كل ما في المزرعة من الحيوان كان مولعاً بها٠ فانها اذا سارت في الحقول اسرعت اليها البقر والحملان لالفتها اياها ٠ واذا سارت في دار المزرعة وقع الحمام عليها فنزل منه على كتفيها وحام الباقي حولها وفوق وجهها وكاترين تبسم لها ٠ واذا دخلت الاسطبل حمحمت الخيل فيهاوفس على ذلك٠ فتكون كاترين هي صاحبة السلطة الادبية الحقيقية في المزرعة فمن حقها اذاً ان تضاف الى هذه السلطة الادبية السلطة الفعلية

ان في ادوار المراة دوراً يجعلها كالمغناطيس تجذب كل شيء ٠ وهذا الدور هو دور الصبا والشباب ٠ فعلى المراة ان تراقب جاذبيتها في هذا الدور لكي لا تدع شيئاً رديئاً ينجذب اليها

ولما تكامل عدد العملة تقدمت منهم مدام بيلو ووراءها كاترين و بيتو وقالت لهم . ان زوجي بقي في باريز الى اجل غير معلوم . وقد علم انني متقدمة في السن لا استطيع القيام بحاجات المزرعة بالنشاط الواجب لها فارسل مع بيتو يعهد بذلك الى ابنتي كاترين النشيطة التي تعرفون حسن ادارتها. فاعتبروها منذ الآن مديرة للمزرعة بدلاً مني وانا اول الطائعين لها

فاظهر العملة سرورهم بتولي كاترين ادارتهم فشكرتهم كاترين على ذلك . فطلبوا منها ان تعين لهم اعمالهم فابقت كل واحد منهم في العمل الذي كان يعمله

وكان بيتو في اثناء ذلك يسمع و يرى وهو ساكت لالم الضربة التي ضربته اياها كاترين آنفًا . فلما انصرف العملة الى اعمالهم وجاءت نوبته تقدم منها وقال خاضعاً . وانا يا مداموزل كاترين . ماذا تريدين ان اعمل في المزرعة

فابتسمت كاترين له وقالت . انت . لا شيء يامسيو بيتو . فلم يفهم بيتو هذا الكلام فقال هل تحبين ان اعود الى حسابات المزرعة . فاجابت كاترين حينئذ وهي غير مبتسمة . انا لا ارى لك عملاً في المزرعة يامسيو بيتو

ففتح بيتو فاه وعينيه وحاول ان يسد اذنيه حتى لا يسمع ماسمع . ثم قال متألماً كيف تقولين لا عمل لي في المزرعة . فاجابت كاترين نعم لا عمل لك لانني لا اريد ان اهينك يامسيو بيتو . فانت الآن اصبحت رجلاً عالماً كبير الجاه لانك من فاتحي الباستيل والعلم وكبر الجاه لا ينطبقان على الخدمة في مزرعة

فعلم حينئذ بيتو ان كاترين تتكلم دون مزاح فقال . اذن انتِ ترين الآن ان علمي يوجب طردي من المزرعة ومنعي من اكتساب خبزي . فقالت كاترين من يطردك يامسيو بيتو ؟ ابقَ عندنا اذا شئت ولكنك تبقى دون عمل

فثارت كبرياء بيتو وحبه . واحد يجذب وواحد يدفع . اما كبرياؤه فانها كانت توجب عليه ترك المزرعة حفظاً لكرامته بعد القول الذي قالته مداموزل كاترين . واما حبه فكان يقول له اسكت وتذلل والتمس يابيتو

فقال للمصالحة بين الاثنين . الا تريدين ناظرًا للحقول يا مداموزل كاترين . الا تحتاجين الى مراقب للماشية في المزرعة . الا يلزمك من يقيد حساباتك او يتولى صندوقك . وبالجملة الا يوجد عندك مكان صغير لي اخدمك فيه على الراس والعين

قال ذلك وانتظر جواب كاترين . ولبث ناظرًا الى شفتيها الجميلتين ليرى حركتهما فما لبث ان رآهما قد انفتحتا قليلاً وخرجت منهما هذه الكلمة الهائلة — كلا

فازداد الم بيتو وعلم من هذا الرفض ان كاترين مصممة على ان لاتوليه عملاً . فقال لها . اتحبين اذًا ان اترك المزرعة

فابتسمت كاترين . واما بيتو فتنهد لهذه الفتاة التي كانت تلعب بقلبه كانه في يدها عصفورة تذبحه وهي تبتسم . ثم قالت له كاترين يعز علينا فراقك يا مسيو بيتو واذا ذهبت فاننا ناسف لذهابك قالت هذا ثم قصدت غرفتها

الفصل السادس والعشرون

(كاترين افلتت من يده)

فبقي بيتو المسكين في اضطراب عظيم كانه ريشة في مهب الريح وفي نفسه مرارة اليأس والهم والغم . وقد اصبح يرى ان جميع آماله حبطت وذهبت ادراج الرياح . اين ما كان يعلل به نفسه من لطف كاترين وميلها اليه . اين ما كان يرجيه من السعادة في المعيشة في بيت كاترين . بقرب كاترين . وتحت نظر كاترين . كل ذلك ذهب هباء منثورًا . لقد سقطت القصور التي بناها بيتو في الهواء فلم يبقَ له الا السكوت وانتظار رحمة كاترين

فذهب وهو صاغر النفس مكسور القلب ملوي الرأس الى المقعد الموضوع بازاء غرفة كاترين وجلس يرقبها و ينظر اليها كما يرقب المجوسي طلوع الشمس في الصباح

فما لبث بيتو ان رأى خيالاً في الغرفة يروح و يجيء فامعن النظر فراى ان كاترين تتزين وتلبس ملابسها الجميلة امام مرآتها . فغص بريقه و وضع يده على قلبه . ثم لما عاد من سكرته اخذ يسال نفسه . لماذا تتزين الآن كاترين . لماذا تلبس اليوم ملابس العيد

و بعد برهة خرجت كاترين من غرفتها وطلبت جوادها . فحك بيتو راسه وسال نفسه اين تذهب كاترين . فاحضروا لها الجواد فوضعت يدها على لجامه وقالت للخادم انها ذاهبة لافتقاد الحقول في فرته ميلون ثم وثبت وثبة عصفور خفيف فاصبحت في السرج وسارت في طريق فرته ميلون

فبعد ان سارت كاترين قال بيتو في نفسه : ان في استطاعة كاترين ان تقول لي — لا احب ان اراك . ولكنها لا تستطيع ان تقول لي — امنعك من ان تتبعني . قال هذا ونهض يقفو اثار كاترين

ذلك ان الفتى بيتو اصبح غير قادر على المعيشة دون كاترين لانها صارت منتهى امله واقصى امانيه . وكان غرضه من اقتفاء اثارها ان ينظر اليها نظرة حين مرورها . وتوصلاً

الى ذلك لم يسر وراءها بل قطع عليها الطريق وسار توًا الى الحرش القريب الذي كان يجب ان تمر به في سيرها الى فرته ميلون

وقد كان بيتو في سيره الى هذا الحرش مسرعاً يختبيء من حين الى حين لكي لا تراه كاترين. ولما بلغه اختبأ وراء شجرة على الطريق ليتسنى له ان يتزود من كاترين نظرة حين مرورها

فما اقنع بيتو وما اقل خطر الحب اذا كان كله كما كان يحب

ولبث بيتو ينتظر كاترين وراء الشجرة بصبر فارغ وكله اعين ترى الطريق وتفتش عن شبح كاترين من بعيد دون ان ترى شيئاً . ومرَّ عليه ربع ساعة ثم نصف وهو واقف هذه الوقفة من غير نتيجة . فشعر بيتو انه اخطأ في حسابه بل شعر ان كاترين قد كذبت في ما قالته من قصدها فرته ميلون لانها لو كانت ذاهبة اليها لوجب ان تكون قد مرَّت من هذه الطريق . فخطر له حينئذٍ ان كاترين قد غيرت طريقها وافلتت من يده فوثب من مكانه وثبة الارنب التي يناجئها الصياد حتى خرج من الحرش ومدَّ بصره الى الطريق

فابصر بيتو كاترين على الطريق المقابلة وهي سائرة بجوادها ركضاً نحو بورسون اذ غيرت طريقها واجتازت تلك الناحية. فطار صوابه وحمحم حمحمة الجواد لذي يطلب الركض ثم انه من غير ان يفتكر بشيء او ينظر الى شيء اطلق ساقيه الطويلتين وراء الجواد وراح يعدو من كل قوته

وانت تعرف قوة بيتو وسرعته في الركض . فان ساقيه قد خُلقتا من فصيلة الخيل لا من فصيلة البشر ولذلك لم تكونا تقصران عن الخيل في الركض ان لم نقل انهما تسبقانها

وبينما كان بيتو يركض ورجلاه تسابقان راسه ويداه الطويلتان كانها مجاذيف تتحرك حركة شديدة في الهواء وكل جسمه مضطرب ثائر قال في نفسه ان الاجدر به ان يصنع ما صنعه في المرة الاولى اي قطع الطريق على الجواد وقصد حرش بورسون توًا ليتسنى له الوصول اليه قبله . فحاد بيتو باسرع من لمح البصر عن الطريق وانطلق كالسهم الى الحرش

وكانت كاترين في هذه الاثناء ثابتة بقامتها الهيفاء على متن جوادها والجواد يعدو بها والنسيم يعبث بشعرها ويداعب ملابسها . وكان بيتو يركض يركض وعيناه شاخصتان الى جميلته كاترين وهو خائف ان تلتفت وتراه . ولكن فات هذا المسكين ان كاترين كان بالها مشغولاً في تلك الساعة بما امامها لا بما وراءها

وبقي بيتو يركض على ساقيه وكاترين تركض على فرسها حتى اصبح بيتو على موازاة الجواد فكانه ركض ضعف ركضه حتى استطاع ان يوازيه ٠ ذلك ان بيتو كاد يشق نفسه بهذا الركض السريع ليقف على سبب كذب كاترين واصبح الآن يتبعها ليراقبها لا ليراها ٠ فانها قالت قبل خروجها من المزرعة انها سائرة الى فرته ميلون فلماذا كذبت وقصدت بورسون

ولما وصل بيتو الى الحرش في ركضه السريع اصبح يجد في طريقه الادغال والنباتات تمنعه عن السير فكان يقمز فوق بعضها و يضرب البعض الآخر بسيفه وهو يعدو فيقطعه ٠ وكان كلما ضرب ضربة راى فرس كاترين يرفع راسه في سيره و ينصب اذنيه ناظرًا الى المكان الذي صدر عنه صوت الضربة ٠ فازداد بيتو حرصاً على الاختباء وهو يركض

وكان قد اخذ يسبق الجواد بعد موازاته فتمهل في ركضه حتى لا يفوته ٠ وفيما هو سائر وعيناه شاخصتان الى كاترين من بعيد سمع حمحمة جواد قادم تتلوها حمحمة جواد كاترين ٠ فقال بيتو في نفسه ربما قد وصلنا ٠ وبعد برهة راى فارساً مسرعاً صوب كاترين لملاقاتها

فابتدأ الالم في نفس بيتو ولكنه كان هذه المرة شديدًا لا يحتمل ٠ فاخذ يتميز لوائح الشاب فلم يقدر على ذلك لانه كان بعيدًا عنه ٠ وكان الشاب قد وصل الى كاترين ووصلت كاترين اليه فعلم من الاحمرار الذي صبغ وجه الفتاة حين مده يده للتسليم عليها ومن الابتسام الذي انار وجهها فوق نور الاحمرار ان كاترين مرتاحة جدًا الى هذا الملتقى ٠ فدنا بيتو قليلاً من الاثنين ووجه كل قوى نفسه الى وجه هذا الشاب فلم يتميزه ٠ ولكنه ادرك من قبعته وجلوسه في سرج جواده ولطف حركاته ورشاقته حين نزوله عنه للاخذ بركاب كاترين ومساعدتها على النزول انه من اعلى طبقات الهيئة الاجتماعية ٠ فهبت في نفس بيتو زوبعة هائلة اذ ذكر ان هذا الشاب قد يكون هو المسيو ايزيدور دي شارني الذي رآه يوماً يرقص مع كاترين في فيلله كوتره رقصاً بديعاً وصاحب القصر البديع في بورسون ٠ فلم يعد بعد هذا الفكر يستطيع الصبر عن الدنو منهما فتقدم مسرعاً وهو يختبئ بين الادغال وجذوع الاشجار حتى اصبح على بعد ٢٠ خطوة منهما

غير انه ما وصل الى هذا المكان حتى راى الشاب قد التفت اليه لصوت حركة الاقدام فاستلقى بيتو باسرع من لمح البصر على بطنه الى الارض ومد جسمه عليها فاصبح كانه داخل فيها ٠ اما الشاب فلما لم يرَ احدًا ترك النظر الى ذلك المكان

واما كاترين فان اذنيها ما كانت تسمع صوتاً لان عينيها كانتا مشتغلين بالشاب الذي امامها

واما بيتو فانه راى وجه الشاب حينما التفت اليه فوجد انه هو المسيو ايزيدور دي شارني نفسه فزأر في نفسه زئيرًا يحكي زئير الاسود وعض شفتيه باسنانه ومد يده الضخمة الى قلبه بشدة وقوة كانه يحاول تسكين هياجه العظيم او يريد نزع عقارب الغيرة والحسد الهائل التي اخذت تدب فيه دبيباً هائلاً . ثم ادنى بيتو وهو في هذا الهياج والعذاب يده من عينه ومسح دمعة اخذت تبرز فيها . ثم تنهد من اعماق قلبه وخرج من صدره مع زفرات التنهد هذا الصوت — آه يا كاترين

وكانت كاترين والشاب واقفين في هذه الاثناء الواحد بازاء الآخر ساكتين والارواح تتكلم وكل منهما شاخص الى رفيقه . وكان بيتو وهو يراهما يرى منظرًا بديعاً يروق العيون . فانه كان يرى منتهى الجمال الطبيعي الفلاحي مقروناً بمنتهى عظمة النبلاء وجمالهم . يرى زهرتين في منتهى الجمال وشرخ الصبا واقفتين في هدوء المساء تحت اشجار الحرش الغضة وفوقهما العصافير تغرد كانها تردد جهرًا ما كانا يقولانه سرًا . يرى جسمين جامدين وسط تلك الطبيعة المتحركة التي كانت تستعد لسبات النوم ونسيم المساء يهب على الاغصان فيحركها تحريكاً خفيفاً كانه روح الاثنين ضاقت عنها مادة البدن فخرجت الى الفضاء الواسع الذي اخذت منه قبلاً . يرى السماء تظلل بزرقتها من بعيد هذين الملتقيين وتمدهما بشيء من بهاء لونها . يرى الشمس وهي مائلة نحو كهفها البارد ترسل اليهما شيئاً من اشعتها الصفراء الفاترة كانها تسلم تسليم الخضوع والاحترام على اختها كاترين وتغبطها على الهناء الذي تجده في ذلك الملتقى بينما هي في مفارقة حبيبها العالم . — ولكن كل هذه المناظر والتصورات التي كانت تملأ عيني بيتو جمالاً وحلاوة كانت تملأ نفسه غيظاً و ياساً وشقاء فيشعر باشد عذاب تشعر به مهجة انسان . واي عذاب اشد من عذاب محب حباً صحيحاً كبيتو يرى آماله واحلامه تذهب في الهواء في ساعة واحدة

و بينما بيتو يراقب كاترين والشاب ايزيدور وكله اعين ترى سمع صوتاً من جهتهم فاصبح كله اذاناً تسمع . واذا بكاترين تقول

— ابطأت اليوم يامسيو ايزيدور

فقال بيتو في نفسه — ما شاء الله فهو اذًا في الايام الاخرى ما كان يُبطىء

فاجاب الشاب . لا تلوميني ياعزيزتي كاترين فقد اخذت اليوم كتاباً من اخي الكونت دي شارني في باريز فكان سبب ابطائي . واعدكِ انني لا ابطيء بعد الآن

فابتسمت كاترين اما بيتو فان قلبه كان يقطر دماً • ثم قالت كاترين • الظاهر انك قد وردتك اخبار من باريز • قال نعم واني ارى الحال سيئة • قالت وانا ايضاً وردتني اخبار منها • قال مع من قالت مع « بيتو »

فضحك الشاب وقال « بيتو بيتو » ما هذا بيتو • انه في الحقيقة اسم مضحك

فاخذ بيتو يحك راسه عند هذا الكلام

فقالت كاترين ان بيتو هو ذلك الفتى الذي رايته يوماً معي في حفلة الرقص في فيلله كوتريه • فقال الشاب ضاحكاً عرفته عرفته فهو صاحب الركبتين التي كل واحدة منهما كانها راس طفل من كبرها

فضحكت كاترين ضحكاً شديداً اما بيتو فانه في مخباءه اصبح يرى نفسه صغيراً صغيراً اصغر من النمل والحشرات التي كانت تزحف تحته في نومه على الارض • ثم نظر الى ركبتيه ليرى هل هما حقيقة كما قال الشاب النبيل • اما كاترين فقالت للشاب وهي تضحك • لا لا • ارجوك ان لا تضحك من بيتو كثيراً • ولو كنت اعلم ان ضحكك منه لا يزداد لكنت اقول لك ماذا اقترحه عليّ هذا الولد قبل حضوري

فلما قالت كاترين « هذا الولد » شعر بيتو ان نفسه ازدادت صغراً

فقال الشاب وماذا اقترحه عليك • قالت وهي تضحك ايضاً اقترح عليّ ان يصحبني الى هنا • فازداد الشاب ضحكاً وقال ولماذا لم تاتِ به فانه كان يسلينا

فهنا اخذت جبهة بيتو المسكين تنضح عرقاً لتاثره وعذابه وقال في نفسه كانني اضحوكة حتى اُسلي هذا البارد

فاجابت كاترين على سؤال الشاب • نعم يسلينا ولكن ما كل مرة • قالت هذا وصبغ الحياء والخجل وجهها • فضحك ايزيدور دي شارني ومد يديه فضم راسها المصبوغ بماء الخجل والحياء ليقبلها

فطارت نفس بيتو شعاعاً فاغمض عينيه وستر وجهه بيديه لكي لا يرى القبلة ثم اخذ بشعره يشده من اليأس • ولكن هذا التعيس قد نسي من سوء حظه ان يسد اذنيه فسمع صوت القبلة وان لم يرها

وكان المساء قد امسى واخذ ينزل على العالم ذلك الستار الرهيب الهادىء الجميل الذي يُسمى ظلاماً • فلما رفع بيتو راسه بعد اغماضه عينيه راى الشاب والفتاة قد اخذ كل منهما بيد رفيقه وسارا وهما يقودان فرسيهما اللذين كانا في اثناء تلك المدة يتلاعبان ويتداعبان

لانهما الفا بعضهما البعض لطول اللقاء والعبد على دين سيده

فرآهما بيتو يبعدان عنه بعينين مالئهما الغيظ دون الدمع لان نفس بيتو بعد تلك القبلة وهذا الملتقى قد تغيرت كما تتغير نفس حرّ ينبو عن الضيم و يأبى الذل فقام واقفاً فيهم كاثرين وهي ذاهبة مع رفيقها تقول له — اصبت فلنتنزه في هذا المكان الجميل فما احلى النزهة في هذه العزلة (١)

واما بيتو فقال في نفسه اني عائد ولكن لا الى مزرعة بيلو . فان نفسي تكره الاكل من خبز امراة تحب رجلاً سواي وفي الحقيقة انه اجدر بجمالها مني . قال هذا ثم اتجه صوب هرامونت مسقط راسه حيث ينتظره فيها شان عظيم ومقام كريم وكان بيتو وهو سائر الى هرامونت يهز راسه و يقول في نفسه — ما يصنع الاب بيلو لو علم بكل هذا . ثم يقول: هذه نتيجة تولية النساء

الفصل السابع والعشرون

(بيتو خطيب)

ولما وصل بيتو الى مسقط راسه هرامونت استأجر غرفة فيها وكان ذكر خوذته وسيفه لا يزال في اذهان اولئك القرويين فلما دروا باقامته عندهم سروا كل السرور واكرموه كل الاكرام حتى انهم كانوا يجتمعون عليه في الشوارع لمشاهدة سيفه وخوذته كما يجتمعون على امر غريب فانتشر صيته بينهم انتشاراً عظيماً

وزيادة في اكرامه وايجاد علائق معه اوفدوا اليه في ذات يوم وفداً لزيارته والسؤال منه عن راحته وحوائجه فاستقبلهم بيتو بلطف واكرام ولما انتهت زيارتهم شيعهم الى باب الغرفة واخذ يشكرهم على التفاتهم وعنايتهم

فاتخذ كلامه معهم اسلوب الخطابة فاصغى اليه اولئك القرويون بارتياح شديد . ومعلوم ان بيتو قد تلقى في المدرسة بعض الدروس الادبية فضلاً عن سماعه خطب الخطباء في باريز فكان يعلم الكلم الثماني التي يثير بها قواد الامم افكار الشعوب و يقودونها الى حيثما يشاؤن وهي — الحرية والوطن والاستقلال والعظمة والعائلة وما اشبهها . ولذلك اخذ يؤثر على اولئك القرويين . فاستهل كلامه بمطلع على طريقة لافاييت اذ قال ما نصه

---

(١) يجدر بعقلاء القراء ان لا يسرعوا في اللوم لوضعنا في المجلة حباً كهذا الحب بل فلينتظروا الى الحوادث المقبلة

— ايها الاخوان . يلذ لي ان اسميكم اخوانًا لان كل الفرنسو بين عائلة واحدة . اني وجدت عندكم هنا في مسقط راسي من الاكرام ما جعلني احسب نفسي في عائلتي

وكان بعض النساء في جملة الحاضرين فلما سمعن قول بيتو اني احسب نفسي في عائلتي اثرت فيهن هذه الكلمة اعظم تاثير لمعرفتهن يتم بيتو وموت اهله منذ صباه فاذرفن الدمع وكان ذلك بدء تاثيره وتوفيقه

فحكى بيتو في خطابه قصته منذ سفره الى باريز ثم فصل اعماله واعمال الشعب هناك حتى فتح الباستيل . واستنتج من ذلك ان الشعب كما انه نهض في باريز لمقاومة الظلم وطلب الحرية كذلك يجب ان ينهض في هرامونت لهذا الغرض النبيل

فكان الحاضرون يتحمسون ويصفقون كثيرًا

ثم ختم كلامه باشارة حماسية كهربت نفوس الحاضرين فانه القى سيفه الى الارض ثم تناوله وجرده بعظمة فتحركت في نفوس الناظرين عواطف الحماسة والبسالة وصاروا يهتفون ويستحسنون كلام بيتو . وبذلك كان بيتو لم ينشيء خطابًا ولكنه انشأ ثورة

وفي ليلة ذلك اليوم نام بيتو متاثرًا . فانه سرّ بالفوز الذي اصابه لدى اهالي هرامونت ولكن فوزه اذكره كاترين فبقي في هذه الليلة ينقلب على فراشه حتى الساعة الحادية عشرة لتاثره من ذكرى فوزه وذكرى كاترين . ولكن ما لبثت اعضاؤه ان خدرت واجفانه ان ثقلت فنام ملء عينيه . فابصر في نومه انه يخطب على الوف من الناس وبينهم كاترين تصنق له تصفيقًا شديدًا مع المصفقين . وكانه قال قولاً بليغًا جدًا فدوت قاعة الخطابة من تصفيق الحاضرين وهتافهم دويًا انتبه له بيتو من نومه . وكانت الساعة السادسة صباحًا

فلما فتح بيتو عينيه في فراشه ابصر من نافذته جمهورًا من اهالي هرامونت يبلغ ٢٠ نفسًا ينظرون اليه من النافذة ويشاهدون نومه . فعجب بيتو من تبكيرهم ونهض اليهم باسمًا نهوض القائد المنتصر فسلم عليهم وسالهم ماذا يطلبون . فتقدم اخدهم وهو الذي عهد اليه ان يتكلم بالنيابة عنهم وقال . علمتنا امس يامسيو بيتو انه يجب على شعب هرامونت ان يتسلح كما تسلح شعب باريز ليكون على حذر وقد وقع اقتراحك هذا في نفوسنا اشد وقع فصرفنا ليلنا ونحن نتباحث في الامر ثم جئناك الآن نطلب منك ان ترشدنا عن الطرق التي نطلب بها الحرية

فابتسم بيتو وقال اما الطريق الى الحرية فهي واحدة وهي البنادق والحراب . فتقدم حينئذٍ الباقون وقال احدهم نعم ولكن من اين لنا السلاح . فقال بيتو كم عدد الرجال في

هذه القرية فقالوا له عددنا ٣٢ شخصاً فقال بيتو فعليَّ اذاً تدبير السلاح لكم

فطار القرويون فرحاً . فاستانف بيتو الكلام قائلاً . نعم انا ادبر لكم سلاحكم فانني اعلم ان في منزل الاب فورتيه صاحب المدرسة كثيراً من البنادق فناخذ منها حاجتنا . فقال قائل من الجمع وان لم يعطنا منها . فقال بيتو نغصبها لان البنادق ملك الحكومة لا ملكه . فقال احد الحاضرين لا باس بذلك فلنتسلح خدمة للحرية ولكن يجب ان لا يطول امرنا في ذلك لوجوب عودتنا الى العمل في حقولنا

فقهقه هنا بيتو وقال ماذا تقول . العمل . واي عمل تعني . فقال ذلك الرجل بشيء من الجبن قلت ان نعود الى العمل لعلي اننا اذا لم نعمل لم نكسب شيئاً لنا كل ونسد رمقنا

فضحك بيتو وقال «ان نا كل» وهل يا كل الذين يطلبون خدمة الحرية . هل اكل الذين فتحوا الباستيل في ١٤ لوليو . نعم شربوا لان الحر كان شديداً وحر البارود يزيد النفوس ظماء . اما الاكل فالذين يطلبون الحرية لا يسالون عنه (١)

فاعجب القرويون هذا الكلام ولكن جريئاً منهم اعترض بقوله وهل لم يا كل الباريزيون في اليوم التالي . فاجاب بيتو نعم لا بد ان يكونوا قد اكلوا في اليوم التالي . فقال الرجل فاذا كانوا قد اكلوا فذلك دليل على انهم عملوا اذ لا اكل بلا عمل

فقال بيتو بهيئة جدية . انت لا تعرف باريز يامسيو بونيفاك فتقيسها على هرامونت و باقي القرى. ان باريز كما يقول المسيو لافاييت هي دماغ الامم و راس الشعوب لانها تفتكر لجميع الناس فهل سمعت ان الدماغ يا كل

فا كبر هولاء القرويون البسطاء هذا القول وصاحوا احسنت يابيتو . ولكن بونيفاك اعترض بقوله فكيف يعيش اهلها اذاً . فقال بيتو بهيئة خطيرة يعيشون كما يعيش الدماغ. انظر الى دماغك هل يا كل. هل يشرب. ومع ذلك فهو حي. ومع ذلك انت حي تروح وتجيء . ذلك ان باقي الاعضاء تسعى وتعمل وتا كل خدمة للدماغ . وهكذا باريز والمدن والقرى التابعة لها التي هي منها بمنزلة الاعضاء

ثم راى بيتو ان سامعيه مدهوشين من كلامه ومصغين اليه بتمام الارتياح فاغتنم هذة الفرصة لزيادة التاثير عليهم فقال

ومع ذلك فانك تقولون العمل العمل . فماذا تسمون تسلحنا وسهرنا وسعينا اليس هذا

---

(١) اراد المؤلف بذكر هذه الامور شرح حركة الثورة في القرى والمدن الصغيرة بعد شرح تفاصيلها في باريز ولذلك لم نختصر الكلام كثيراً

عملاً . واي عمل اشرف من هذا العمل الذي يقضي بالدفاع عن شرف امة وحياتها وحريتها . تسمون الذي يحرس الارض و يزرعها لاستنبات الحبوب منها عاملاً ولكن ماذا تسمون الذي يفتكر و يعمل بقوة عقله الاعمال العظيمة الا تسمونه عاملاً عظيماً فانا الآن اذاً اكثر عملاً منكم لانكم انتم تعملون باستخراج خيرات الارض اما انا فاعمل لتحريركم ومنحكم الحرية التي هي اعظم خيرات الارض والسماء فدقيقة من دقائقي توازي في الاهمية اياماً من ايامكم انتم كالبقر تزحفون على الارض وانا كالنسر ارفرف في الهواء فانا اذا وحدي افضل منكم كلكم . انظروا الى المسيو لافاييت فانه رجل صغير الجسم ذو يدين ضعيفتين وساقين نحيفتين ومع ذلك فقد حمل على ظهره عالمين اميركا وفرنسا و يداه الضعيفة قد كسرت قيودهما افلا تسمون عمله الساني العظيم عملاً ثم اذا كانت يد لافاييت الضعيفة قد عملت ذلك فكيف بهاتين اليدين القويتين

قال هذا و بسط لها يديه الطويلتين الضخمتين وهو واثق بانه قد اثر فيهم تاثيراً شديداً وفي الحقيقة ان الحاضرين كان قد بلغ منهم كلام بيتو مبلغه من التاثير فازدادوا له حباً واحتراماً وهنافاً وهكذا اصبح بيتو في يومين زعيماً محبوباً محترماً

الفصل الثامن والعشرون

(التلميذ تجاه معلمه)

او مبدأ الثورة تجاه مبدا الملكية

ولكن بيتو لم ينس كاترين في فوزه بل كان كلما سكت ليسمع وخلا الى نفسه يذكرها و يتفكر بصنيعها معه ولما كانت النقود التي اخذها من الدكتور جيلبار كادت تنفد عاد بيتو الى حرفته القديمة ليكسب منها رزقه وهي صيد الارانب فرأى انه اذا صاد كل يوم ارنباً واحداً استطاع ان يبيعه فيكفيه ثمنه للمعيشة اسبوع فكل ارنب اذاً يكفيه اسبوعاً وما زاد من الصيد في هذا الاسبوع فهو مال مقتصد لحين الشدة

الا انه في نومه تحت اشجار الحرش وهو ينتظر الارانب ان تقع في الحبائل التي يكون قد مدها لها كان يفكر بمرارة بكاترين و يتنهد تنهداً يدوي له جو الحرش وتجاوبه الاشجار بحفيفها و زفراتها كانها هي مفارقة ايضاً واستلقى يوماً تحت الشجر فذكر ماضيه في المزرعة وحاضره في هرامونت ثم اخذ يسال نفسه هل قضي عليه ان لا يرى كاترين فيما بعد فاجابه ضميره ان ليس من عزة النفس ان يجعل كاترين تراه بعد ما صنعت معه فاجابه هو

في نوبته ولكن اذا كانت عزة النفس تقضي بان لا تراني كاترين فما المانع من ان اراها دون ان تراني ما المانع ان اختبيء وراء الاشجار حين مرورها لانظر اليها نظرة فقط هل في ذلك ما يغض من كرامة النفس وعزتها ثم انه لا يخفى ان الاب بيلو قد عهد الي مراقبة البيت وما فيه وهو الآن يعتقد انني في بيته مقيم على هذه المراقبة افلا يوجد هنا واجب علي للاب بيلو وهو مراقبة كاترين على الاقل لانقذها او اساعدها حين الحاجة ان لم يكن من اجلها نفسها فمن اجل الاب بيلو ابيها. فراى بذلك انه ليس من حقه فقط ان يرى كاترين بل من واجباته ذلك خدمة لبيلو فعزم على ان يراها ويراقبها

ولذلك كان كثيرًا ما كان يذهب بحبائله ويمدها للارانب تحت الاشجار المجاورة للمزرعة وهو يجهد بالاختباء حتى يراها حين مرورها دون ان تراه ولكن من سوء حظه ما كان يظفر بها

وفي ذات يوم وهو جالس تحت اشجار هرامونت يفتكر بها وحبائله منصوبة للارانب راى رجلين يتقدمان صوبه بتردد فامعن النظر فيهما فوجد انهما اثنان من سكان القرية الذين عزموا على التجند في سبيل الحرية فجلس بيتو ولبث ينتظر ولما وصلا اليه جلسا بجانبه واخذا يطلعانه على سبب مجيئهما

فقالا ان خواطر سكان القرية قد اضطربت بعد خطابه ووقفت ايديهم عن العمل لاشتغال افكارهم بالدفاع عن الحرية وحقوق الامة ولذلك يطلبون من بيتو ان يعجل في تجنيدهم للشروع في العمل

فدهش بيتو لهذه السرعة واجاب انه آخذ في تدبير ذلك ولكنه يجب عليه الاهتمام بالحصول على السلاح اولاً . فقال احدهما اما قلت ان لدى الاب فورتيه رئيس مدرسة فيلله كوترية كثيرًا من السلاح. قال بلى قلت ذلك ولكني افكر الآن بطريقة لطلبها منه دون تعرض لغضبه فقال الرجل الثاني عافاك الله ايها القائد الهمام ومتى اصبح القواد يخشون الرهبان

فراى بيتو انه اذا اصر على رايه اضاع ثقة رجاله فيه وخاف خوفًا شديدًا من ان ينسبوا اليه الجبن وهو لم يبتدىء بعد ولكنه من جهة اخرى قال في نفسه ان هؤلاء الجنود يدفعون قائدهم قبل ان يكونوا جنودًا له ويقبض على قيادتهم فماذا يصنعون متى اصبح قائدًا لهم

وبعد ان فكر بيتو قليلاً قال لهما اسمع يا كلود وانت يا دزيره انني اكثر شوقًا منكم الى تجنيدكم ولكني اخرت ذلك قليلاً لاتبصر في ماذا يجب ان اصنع مع الاب فورتيه

لاحصل على البنادق التي عنده لاني اعرف عناده واخلاقه فحسبتم تبصري واعتدالي خوفاً فانا تارك ذلك وعازم غداً على زيارة الاب فورتيه لطلب البنادق منه وغير عابىء بكل ما يجري لي معه

قال بيتو ذلك بجرأة ولكنه كان يقول في نفسه ان لقاء الاب فورتيه الصلب الشديد العنيد الذي كان قد خرج من مدرسته مطروداً امر غير هين ولكن اذا لم يكن غير الاسنة مركباً فلا يسع المضطر الا ركوبها

وفي اليوم التالي قصد بيتو فيلله كوتريه لزيارة الاب فورتيه وطلب البنادق التي عنده فلما وصل الى الباب اشتد خفقان قلبه مع ان هذا الفتى احتمل نار الباستيل دون ان يخفق له قلب او ينبض له عرق ذلك ان تذكارات الصبا تبقي في النفس تاثيراً حسناً اذا كان صاحبها قد وجدها حسنة في صباه وتاثيراً سيئاً اذا كان قد وجدها سيئة

ولما قرع بيتو هذا الباب كان يردد في نفسه الكلام الذي استعد لقوله للاب فورتيه ويزيّنه بزخرف الفصاحة والالتماس رغبة في اقناع ذلك الراهب العنيد

ولكن ما لبث ان فتح الباب وكان فاتحه سيباستيين ابن الدكتور جيلبار لانه كان يتنزه في تلك الساعة في الحديقة فسلم عليه بيتو وساله عن ابيه ثم طلب منه ان ياخذه الى الاب فورتيه فالتفت سيباستيين فرأى رئيسه نازلاً من السلم بتمهل وفي يده جريدة يقرأها فقال سيباستيين لبيتو هذا الاب فورتيه

فتقدم حينئذ بيتو وهو ثابت الجاش حتى اصبح على مقربة من الراهب وهو لا يزال يقرأ لكنه ما وقف امامه حتى اطبق الراهب الجريدة ونظر الى الواقف امامه قائلاً . هذا انت يابيتو ؟

وقد قلنا « اطبق » الجريدة ولم نقل « طواها » لان الجرائد الفرنسوية في تلك الايام كانت كلها بشكل المجلات الآن

فلما سال الراهب بيتو هذا انت يابيتو اجاب الفتى نعم خادمك ياسيدي الراهب فضحك الاب فورتيه وقال متهكماً وضاحكاً ايضاً هذا انت ايها الثوري . هذا انت ايها المرائي

وكان سيباستيين سامعاً هذا الكلام فعلم أن الزوبعة قريبة لا سيما لما كان يسمعه احياناً من الراهب عن اعمال بيتو فاغتنم فرصة هذا السكوت الوقتي ومضى في سبيله

فساء بيتو ذهاب سيباستيين لانه كان يراه عضداً له لما بينهما من الاتفاق في المذهب السياسي واصبح وحيداً امام خصمه فكان وهو امام الاب فورتيه يمثل مبدأ الثورة تجاه

مبدأ الملكية والحالة القديمة

وبعد ذهاب سيباستيين تجلد بيتو وقال بادب لماذا تسميني ثوريًا ومرائيًا يا حضرة الراهب

فقال الراهب بشيء من النزق · لماذا تستحي من لقبك الحقيقي اما انت ثوري تشعل نار الفتنة في البلاد · قال بيتو كلا لا اشعل نارا في البلاد · وهبني ثوريًا كما قلت فكل انسان حرٌّ يفتكر بما يشاء

فصاح به الاب فورتيه اخرس ايها المرائي واخسأ انت وهذه الحرية التي تزعمها · احريتكم ان تقتلوا ضباط الملك وتعتدوا على سلطته · احريتكم ان تدخلوا ايديكم الى صدور الذين تقتلونهم لتخرجوا قلوبهم منها بايديكم الوحشية · اهذه هي حريتكم ايها المنافقون

فقال بيتو اخفض صوتك ايها الراهب لئلا يسمعك الشعب فانك تهينه اهانة عظمى

فضحك الاب فورتيه ضحكاً مخيفاً وقال دعني منك ومن شعبك وقل لي على عجل ما جاء بك اليّ · أانت محتاج الى الطعام

فقطع عليه بيتو الكلام بنزق قائلاً كلا كلا لست احتاجك ولا احتاج احدا لانني اعمل فآكل خبزي بتعبي وعرق جبيني

فبهت الراهب لانه ما كان يعهد ببيتو هذا الكبر وهذه العزة فقال ولكن لماذا جئتني · قل سريعاً والا فرغ صبري

فقال بيتو جئتك ياسيدي الراهب لابلغك ان اهالي قرية هرامونت عزموا على الانخراط في سلك الحرس الوطني فقهقه الراهب وقال تريد ان تجعلهم عصابة كعصابات باريز ايها الشقي وماذا يهمني اذا ارادوا ما ارادوا

فاجاب بيتو وهم يحتاجون الآن الى سلاح فقال الراهب وان كانوا يحتاجون ذلك قال وهذا السلاح موجود عند جنابك في هذا المنزل ياسيدي الراهب فهل تامر بتسليمي شيئاً من البنادق التي عندك

فما لفظ بيتو هذا الكلام حتى استشاط الراهب غيظاً فوق غيظه فجرد سوطه المشهور ورفعه كما يرفع القائد حسامه في ساحة الحرب وصاح بالفتى — يا لك من ابله مجنون جئت تطلب منيَ السلاح الذي تقلده جنودنا الابطال في معاركهم الشهيرة ليحمله رجال عصابتك الطغام انظنني ادنس ذلك السلاح الكريم الى هذا الحد بلغت بك الوقاحة اخرج اخرج اخرج

قال هذا ورفع سوطه فوق راس بيتو · فعلم بيتو انه لم يبقَ له شيء في هذا المكان

فاخذ يرجع القهقرى ووجهه الى الاب فورتية وهو بلاطفه بالكلام ويحاول اخماد غضبه لانه خاف انه اذا ادار ظهره للخروج هوى الاب فورتيه بالسوط على قفاه فادماه وما زال بيتو يرجع القهقرى والاب فورتيه يتقدم منه في رجوعه وهو مجرد سوطه بيده حتى وصل بيتو الى الباب فاغتنم هذه الفرصة واندفع للخروج

ولكن ما ادار ظهره ليخرج حتى صدم سوط الراهب قفاه صدمة ارتعدت لشدتها فرائص بيتو فصاح صياح الالم منها مع انه لم يتالم من قنابل الباستيل فخرج كثيرون من الجيران ليروا سبب هذه الصيحة فابصروا شاباً متقلدا سيفاً ولابساً خوذة يعدو باشد قواه فراراً والاب فورتيه واقف بالباب وهو يهز سوطه بيده كأنه ملاك الموت يحمل سيف النقمة

الفصل التاسع والعشرون

(بيتو يبلغ امله)

وكان سقوط بيتو عظيماً فانه بعد ان كان عليّ الشان رفيع المقام يزحمه الناس بالمناكب تسليماً واحتراماً اصبح يُضرب بالسياط ويُهان ويطرد كرعاع الناس فذهب الى مكان منفرد خارج القرية وجلس يفتكر

فرأى بعد الافتكار قليلاً انه قد اخطأ في سلوكه مع الاب فورتيه وقال في نفسه لنفترض انني انا المسيو لافايت والاب فورتيه هو الملك واراد المسيو لافاييت طلب سلاح من الملك لجنوده فما كان يقول له اكان يُظهر له فضل الثورة ويفاخر برجالها واعمالها كما صنعت انا كلا بل كان يقول للملك ان الملكية الآن في خطر من الرعاع والاسافل فيجب تجنيد جيش عظيم لحمايتها وهذا الجيش يحتاج الى السلاح فمر باعطائنا سلاحاً للدفاع عن جلالتكم وعن الملكية فلو انني لاقت الاب فورتيه ان جند هرامونت يؤلف للدفاع عن حقوق الملك ولاطفته بدل ان اخاشنه لبلغت ولا شك الامل وهذا ما يسمونه السياسة وان كان كذباً فانا لم اكن هذه المرة سياسياً

على انه ما اخذ يفتكر بلافاييت ويدور ذكره في فمه حتى تنبه لامر كان غافلاً عنه واخذ يقول في نفسه ما الذي انساني اياه الى الان انني اعلم ان هرامونت احدى قرى فرنسا وفرنسا الآن تحت قيادة الجنرال لا فاييت لانه قائد الحرس الوطني فهرامونت اذاً

تحت قيادته واذا كنت انا وجنودي تحت قيادته فوجب علينا ان نطلب اصلحتنا منه لا من سواه

ثم اشرق وجهه لدى هذا الخاطر فقام مهرولاً الى غرفته وفيما هو على الطريق جعل يفتكر في طريقة الكتابة الى باريز بهذا الشان فعزم على ان يكتب بذلك الى الاب بيلو و بيلو يبلغه الى الدكتور جيلبار وجيلبار يبلغه الى لا فاييت

فكتب في صباح اليوم التالي هذا الكتاب الى الاب بيلو

حضرة المسيو بيلو المحترم

ان انصار الثورة يزدادون يوماً عن يوم وانصار الاستبداد القديم يتناقصون وقد ارادت قرية هرامونت ان تنخرط في سلك الحرس الوطني دفاعاً عن الحرية واستعداداً للطوارئ. وهي محتاجة الى السلاح وبما انه يوجد لدى بعض الاشخاص اسلحة كثيرة فالمرجو ان تعرض ذلك الى قائدنا المسيو لافاييت لاصدار امره الى الذين يخزنون سلاحاً بتسليمنا اياه لننفع بـه الوطن ونقاوم محبي الاستبداد مواطنك وخادمك

انج بيتو

ولكـنه ما اتى على آخر هذا الكتاب حتى راى انه لا يجدر به نسيان عائلة بيلو والا شغل باله فكتب له في الكتاب هذه الحاشية « العائلة والمزرعة في احسن حال وهم يسلمون عليكم » و بذلك اجتنب الكذب واتقى اقلاق خاطر بيلو

و بعد ذلك ختم هذا الكتاب واخذه الى البريد امام انصاره الذين كانوا يراقبونه وهم خاشعون احتراماً اذ رأوه يرسل كتاباً كبيراً مربعاً الى باريز فعلموا انه ذو شان عظيم

ولم ينقض يومان على ارسال بيتو هذا الكتاب الى باريز حتى وفد على القرية ضابط من ضباط الحرس الوطني على جواد كريم وسال عن المسيو « انج بيتو » فقامت قيامة سكان القرية فرحاً ودلوه على بيتو . فتقدم منـه الضابط باسماً وسلم اليه امراً عسكرياً ففتحه بيتو بالحال فاذا هو امر من الجنرال لا فاييت وهذا نصه

« كل الذين في منازلهم من السلاح اكثر من بندقية واحدة يجب ان يسلموه الى قواد الحرس الوطني في القرى . وهذا الامر نافذ في جميع هذه الولاية »

فكاد بيتو يطير فرحاً لانه علم الآن انه اصبح قادراً على ان يأخذ بنادق الاب فورتيه بالرغم عنه . اما رجاله فقد اصبحوا لا ينظرون اليه الا خشعاً لما راوه من نفوذه ولا سيما بعد ان قراوا على غلاف الامر الذي ارسله لا فاييت هذه العبارة « الى المسيو انج بيتو قائد الحرس الوطني في هرامونت » فاخذ بيتو يستعد لطلب البنادق طلباً رسمياً

الفصل الثلاثون

(انتصار يبتو)

وبعد ان اصبح يبتو قائدًا رسميًا للحرس الوطني في هرامونت بامر من الجنرال لا فاييت دعا جنوده وامرهم ان يختاروا لهم ضابطين يساعدانه في قيادتهم . فوقع اختيارهم على المدعوين تليه ومانيكه ثم سألوه ان يبدأ بتمرينهم وتدريبهم على الحركات العسكرية لانهم كانوا في غاية الشوق الى ذلك فاجابهم يبتو كيف يكون التمرين من غير بنادق فقال مساعداه فلنسعَ اذًا للحصول على البنادق على عجل فان الامر الذي لدينا كافٍ لارغام الاب فورتيه على تسليمنا ما نريده منها

فذهب يبتو الى شيخ القرية واطلعه على هذا الامر يساله ان يرافقه الى مدرسة الاب فورتيه لاخذ السلاح منها لجنوده فاطاع الشيخ وسار الى المدرسة مع يبتو ومساعديه وهم اركان حرب جند هرامونت

ولما وصلوا الى المدرسة كان الاب فورتيه يحادث سيباستيين ابن الدكتور جيلبار في الحديقة و يبرهن له ان العشرة الرديئة تفسد الاخلاق الصالحة وانه بما ان الاجتماعات المضرة تمتد في كل المدن والقرى فالاجدر بالعاقل اجتنابها ليبقى امينًا لملكه ووطنه

ولكن واأسفاه ان الاب فورتيه كان يعني بقوله لهذا الولد « امينًا لملكه ووطنه » خلاف ما يعنيه جيلبار ابوه بهاتين الكلمتين لان كل واحد من المعلم والاب كان يفسر الامانة كما يراها فكأنَّ الاب فورتيه بذلك يغرس في نفس سيباستيين ما يناقض مبادئ ابيه

ولما دخل شيخ هرامونت الى المدرسة وابصره الراهب بادر اليه مسلمًا وقائلاً . ما وراءك يامسيو لونبره

فاجاب الشيخ اتيتك ياحضرة الراهب بناء على امر من الحكومة . فقال الراهب وما هذا الامر . قال ان الحرس الوطني في هرامونت يطلب سلاحًا وقد جئت مع وفد من قبله لنطلب منك حاجته منه

ولم يأتِ الشيخ على هذه الكلمات حتى برز يبتو

فصعد الدم الى راس الاب فورتيه وصاح بيبتو . لئيم . وغد . سافل . جئت مرة ثانية لتسرق مالي . فرفع يبتو راسه وقال ما جئت اسرقك ياحضرة الراهب وانما جئت بناء

على امر من الحكومة اسالك اعطاءنا حاجتنا من السلاح الذي عندك

اما شيخ القرية فانه حول وجهه وسكت لانه كان يرغب في مسالمة الفريقين

و بعد جدال طويل واحتدام الاب فورتيه غيظاً وغضباً مرارا دخل بيتو ومساعداه وشيخ القرية الى مخزن السلاح واخذوا منه ثلاثاً وثلاثين بندقية على قدر عدد الجنود ثم اخذ بيتو لنفسه بندقية ضابط وسيفاً مستقيماً كسيف الجنرال لافاييت وعادوا بعد ذلك آمنين الى القرية

اما الراهب فكان عند خروجهم من منزله ملقى على كرسي من يأسه وغيظه وراسه بين يديه وهو يفكر في مصيبته

ولما وصلوا الى القرية وزع بيتو البنادق على جنوده ففرحوا بها فرحاً شديداً وطلبوا منه الشروع في تعليمهم · فوعدهم بيتو بان يعلمهم في اليوم التالي

وهنا مصيبة بيتو الجديدة · مصيبة حرمته الرقاد في تلك الليلة · فان هذا الولد المسكين كان لا يعرف شيئاً من اصول التعليم العسكري وهو يجهل كيف نقل البندقية · فماذا يحدث غداً عند افتضاح امره ومعرفة الناس جهله · الا يسقط من شاهق مجده و يصبح سخرية لكل الناس · فكيف العمل لتلافي سقوطه

وكان بيتو يفكر في ذلك وهو ملقى في ظلام الليل على فراشه ينقلب عليه تقلب الملسوع · فلا قيصر حين وقوعه في ادغال غالية الموحشة ولا انيبال عند تيهه بين الثلج في جبال الالب الشاهقة ولا كولومبوس حين مسيره الى المجهول على سطح الاوقيانوس العظيم — لا احد لم يفكر اكثر مما فكر به بيتو في تلك الليلة

وفيما هو يفتكر ابرق شيء على حين بغتة في فكره فهب من نومه كمن لدغته حية وصاح كما صاح ارخميدس « وجدتها وجدتها »

ثم انه نهض ونادى مساعديه في قيادة جيش هرامونت وابلغهما ان تدريب الفرقة سيكون بعد غد لا غداً · فساله الرجلان عن سبب هذا التاخير فقال لهم بيتو بهيئة جدية تعلموا منذ الآن ان تطيعوا القائد من غير اعتراض حين صدور امره · فسكت الرجلان احتراماً وخرجا لابلاغ الجنود امر القائد

فما غابا عن الابصار حتى خرج بيتو من غرفته فاغلق الباب ثم سار ركضاً في ظلام الليل نحو الجانب الكثيف من الغابة طالباً ما حسبه يفرج كربته · وكانت الساعة الحادية عشرة

الفصل الواحد والثلاثون

(رجل في الطبيعة)

وبقي بيتورا راكضاً نحو الجانب الكثيف من الحرش حتى قطع مسافة بعيدة . ولو رآه حينئذٍ احد الاهالي سائرًا في هذه الجهة لعلم انه يقصد الاب كلويس

ومن هو الاب كلويس

الاب كلويس رجل في التاسعة والستين من العمر كان جندياً منذ سنوات بعيدة فاصيب برصاصة في فخذه فعجز عن العمل فاذن له الدوق دورليان بان يبتني كوخاً في حرشه ويعيش فيه من صيده . ولكنه لم ياذن له بان يطلق سوى طلق ناري واحد في اليوم اعتمادًا على انه يقتل في كل طلق ارنباً فيبلغ مجموع صيده في السنة ٣٥٦ ارنباً وهو قدر كاف لمعيشته سواء من لحم الارانب او من بيعها . ذلك ان الاب كلويس كان مشهورًا في فرقته بانه لا يطلق رصاصة من بندقيته الا ويقتل بها اثناء القتال انساناً فاذا كانت هذه القاعدة مطردة في الانسان وجب ان تكون كذلك في الحيوان . وهكذا كان

وكان الاب كلويس يعيش في الطبيعة خالياً من هموم الاجتماع واقذار الحضر الا ان كثيرين من الاشراف كانوا يقصدونه ويضعون نقودًا في يديه ليروا كيف ان هذا الرجل يقتل في كل رصاصة ارنباً دون ان يخطئ مرة في حياته . فكان يجرب ذلك على مرأى منهم فيعجبون بمهارته . وكانت هذه التجربة تاتيه بدخل غير قليل

وفضلاً عن ذلك فان قوة الاختراع تقوى في الذين ينفردون للتامل او للمعيشة على حدة ولذلك خطر للاب كلويس امر جديد . فانه كان على مقربة من كوخه بلاطة منحنية ملساء فجعل الاب كلويس يُشيع بين اهالى تلك الجهات ان كل البنات اللواتي يزلقن على البلاطة في يوم القديس لويس اي في ٢٥ اغسطس فانهن يتزوجن في تلك السنة بلا شك فجاءه في بدء الامر ثلاث فتيات وزلقن عليها فتزوج منهن فتاتان في تلك السنة . فازداد الاقبال على صخرة الاب كلويس . وكان الفتيات يدفعن له شيئاً من النقود رسماً مفروضاً على الزالقات فكان يقول لمن ازلقن فتياتٍ وشباناً في آن واحد فالتي تكون حسنة النيـة تتزوج بلا شك في هذا العام والتي لا تكون حسنة النية فاللوم عليها لا على الصخرة . وهكذا كان يتخلص من الملام بهذه الحيلة . ثم انه خطر له لزيادة ايراده من هذا اليوم ان

يوجب على الزالقين والزالقات ان يبتاعوا طعامهم في ذلك اليوم من عنده واحضر لهم اطعمة مختلفة · فكان يربح من ذلك ومن ضيوفه النبلاء الذين مرّ ذكرهم ومن بيع الارانب ارباحاً يخزنها لانه كان لا ينفق شيئاً

هكذا كانت معيشة الاب كلويس في تلك الغابة وقد انقضت عليه ٢٥ عاماً على هذا المنوال حين سار بيتو اليه · وكان امره مشهوراً في تلك الجهات كلها

الا ان الاب كلويس كان من سوء حظ بيتو قد اصيب في اليوم الذي قصده فيه بمصيبة لم يُصب بمثلها منذ بداية معيشته فانه كان يطلق بندقيته العزيزة على ارنبة فانفجرت البندقية وانجرحت يده ثم — وا اسفاه — نجت الارنبة

فكانت هذه الارنبة هي الارنبة الوحيدة التي اطلق عليها النار منذ ٢٥ عاماً ونجت من بندقيته

اما يد الاب كلويس فانه ضمدها بشيء من الورق الممضوغ ولكن كيف السبيل لجبر كسر البندقية · لذلك كان حزنه على بندقيته العزيزة التي فقدها اشد كثيراً من حزنه على انسحاق اصبعين في يده · ومن اجل هذا كان الاب كلويس راقداً في كوخه تلك الليلة وهو في منتهى الحزن والغضب

فلما وصل بيتو الى الكوخ وكان يعرف مقره احدث حركةً شديدة لينتبه الاب كلويس فسمع من داخل الكوخ في وسط هدوء الليل في تلك الاماكن الخاوية الخالية زئيراً يحكي زئير الاسود · فخاف بيتو ونادى · ايها الاب كلويس · فاجابه صوت اجش من الداخل قائلاً بغضب من انت · فقال انا بيتو · قال من هذا بيتو · قال انا انج بيتو من هرامونت فصاح الاب كلويس وماذا يهمني ان تكون بيتو وان تكون من هرامونت · اذهب لشانك ودعني وشاني

فتلطف بيتو معه ووعده بالجائزة اذا سمع له ثم دخل عليه وقص عليه قصته وقال له انه يطلب منه ان يعلمه التمرين والتدريب العسكري وهو يعطيه جزاء ذلك ما يشتهي ويريد

فابرقت هنا اسرة ذلك الشيخ وهب من فراشه صائحاً — تعطيني ما اشتهي واريد اذا علمتك الحركات العسكرية احسن تعليم · فاجاب بيتو نعم مهما اردت · فصاح الرجل وقد ذكر بندقيته المفقودة انني اريد جزاء ذلك بندقية

فاجاب بيتو عندي بندقية ضابط اخذتها اليوم فساحضرها لك غداً

فابتهج ذلك الشيخ ونهض الى بيتو ليعلمه نخرج به من الكوخ الى بقعة متسعة بين الاشجار وهناك في ذلك الهدوء العظيم بين حفيف الاشجار وهبوب النسيم وانعكاس اشعة القمر الفضية عن زمرد الاوراق اخذ الاب كلويس يعلم بيتو الحركات العسكرية من نقل البندقية والتسليم والزحف النظامي · ولو رآهما احد وهما يروحان ويجيئان في ذلك الظلام بين الاشجار الواسعة بحركات تارة عنيفة وطوراً خفيفة لحسبهما شبحين من عفاريت الجن يمرحان في الظلام في تلك الغابة

الفصل الثاني والثلاثون

(كاترين تلجأ الى الدهاء والسياسة)

ولما عاد بيتو في تلك الليلة الى فراشه بعد ما تعلمه من الاب كلويس كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فنام مستريح البال · ولكنه حلم في نومه انه يعلم في ساحة عسكرية جيشاً خضماً فيدير حركاته باوامره احسن ادارة · ولما نهض في اليوم الثاني استدعى مساعديه في قيادة الحرس الوطني واخذ يعلمهما بهيئة جدية ونزق الحركات التي تعلمها في الليل من الاب كلويس · فاعجب المساعدان بمهارته

وما امسى المساء حتى تناول بيتو بندقيته وسار نحو كوخ الاب كلويس ليفي وعده له ويكمل تعليمه ولما عاد هذه المرة من لديه كان عالماً بجميع الحركات العسكرية فتنفس الصعداء واصبح يرى نفسه قوي القلب ساكن الجاش بعد ضعفه واضطرابه

وهذا شان المعرفة والجهل فان المعرفة تجعل الانسان قوياً دائماً والجهل يجعله ضعيفاً دائماً

وفي صباح اليوم التالي اجتمع جند الحرس الوطني بساحة القرية فاجتمع الاهالي عليه · ثم جاء بيتو الى الساحة شامخ الراس جريء القلب وسيفه الى جانبه فتناول كل واحد من الجند بندقيته واصطفوا في ساحة التعليم

فتقدم منهم بيتو بقلب مطمئن واخذ يعلمهم ما تعلمه وهم خاضعون له مصغون اليه كما يصغي الجنود الى قائد عظيم · واستمر على هذا التعلم شهرين فاتقن حرس هرامونت تلك الحركات احسن اتقان · وكان بيتو يثني على اجتهادهم وذكائهم وهم يزدادون حباً له وتعلقاً به

ولما اتقنوا الحركات العسكرية صار يجب تعليمهم المناورات فسافر بيتو بضعة ايام الى سلسون وحضر هناك مناورات الجيش ثم عاد وقد تعلم المناورة

ان الانسان اذا تامل في الارتقاء العظيم الذي يبلغه بعض الافراد راى ان ذلك الارتقاء قد نشأ اما عن قوة ارادة الانسان وشدة سعيه واما عن عدم اكتراثه بامور الحياة. في ان ارتقاء بيتو ناشيء عن هذين الامرين معاً . فان ارادته كلها انصرفت الى الصعود الى سلم الاجتماع فكان يسعى الى ذلك بكل قواه وهو غير مكترث الا بالشيء الذي صرف فكره اليه

ولكن لما بدأ بيتو بالصعود واصبح مشهوراً ومحبوباً في هرامونت وضواحيها اخذت تعود اليه عاطفة الاهتمام بكاترين فكان كثيراً ما يسير في الحرش على غير هدى لعله يراها او يرى من يراها . وكان كلما وقعت عيناه على املاك شارني وراء الحرش البعيد تنهد من اعماق قلبه وحسد ذلك الرجل الذي كان سعيداً بحب من يحبه على حين ان كل شيء حوله كان يتعذب و يشقى في ذلك الزمان

وكان بيتو لو اراد في استطاعته ان يحب اجمل بنات القرية والضواحي لانهن كن يتزلفن اليه كل حين ولكن قلبه كان عالقاً بكاترين ولا يبغي منها بديلاً . فقال يوماً في نفسه وهو تائه في الحرش على وجهه لا يلوي على شيء لقد جربت استمالتها باللطف وحسن المعاملة فلم اقدر عليها فلماذا لا اجرب العنف

وكان بيتو موقناً ان بيلو لو علم بميل ابنته الى ذلك الشاب الشريف فانه يقتلها لساعته فخطر له ان يتخذ هذا الفكر سلاحاً ضد كاترين . وكان بيتو قد ابتاع كتباً عسكرية صدرت في ذلك الزمان فاخذ منها كتاباً وسار نحو الجهة التي يعلم انها طريق كاترين الى املاك شارني حيث اعتادت ان تلتقي بالمسيو ايزيدور الشاب اللطيف . ولما وصل الى هناك جلس في ظل شجرة واسند ظهره الى جذعها ثم فتح الكتاب واخذ يقرأ

وفي الحقيقة انه لم يكن يقرأ ولكنه كان ينظر في الكتاب نظراً فقط اذ مر عليه نصف ساعة دون ان يقلب ورقة منه

ولكن لم يمر عليه اربعون دقيقة حتى ظهر له من بعيد فارس ينهب الارض نهباً على جواده . ولما اقترب الفارس وجد بيتو انه كاترين نفسها قادمة الى موعد المسيو ايزيدور دي شارني

تخفق قلب بيتو وصار وجهه في الكتاب ولكن عينيه في كاترين

فرت كاترين على الجواد كالسهم المارق دون ان تراه وقصدت منزلاً هناك للمسيو دي شارني فربطت فرسها في شجرة توت ثم دخلت

فلما غابت كاترين عن عيني بيتو في المنزل امتلأ قلبه حنقاً ولبث ينظر الى الجهة التي غابت فيها كما ينظر المجوسي الى المشرق في الصباح عند انتظاره غزالة النهار او كما ينظر كلب الصيد الى وكر غابت فيه ارنبة

فطال انتظار بيتو ربع ساعة ثم ثلثاً ثم نصفاً ثم ثلاثة ارباع دون ان تظهر كاترين . وكانت نفس بيتو في هذه الاثناء تحدثه اشكالاً والواناً

ولما انقضت ساعة سمع حفيف ثوب وكان المساء قد امسى فالتفت فابصر كاترين قادمة صوبه من غير الجهة التي غابت فيها . فلبث شاخصاً بها ينتظرها . اما هي فكانت تمشي على غير هدى وهي تلتفت ذات اليمين وذات اليسار لترى هل هنالك احد ينظرها حتى صارت على مقربة من بيتو

وكما يحدث لارنب وُجدت على حين بغتة على بعد مترين من كلب صيد قوي . وكما يحدث لفارة رات نفسها على بعد متر واحد من هرة قوية هكذا حدث للجميلة كاترين . فانها حين وقع بصرها على بيتو امامها وهي لا تعلم بوجوده هناك اصطبغ وجهها بصفرة تحكي صفرة الموت واصطكت ركبتاها فصرخت صرخة خفيفة وعادت ركضاً كالجواد السريع نحو جوادها فوثبت عليه كلمح البصر واطلقت له العنان قاصدة مزرعتها

اما بيتو فانه نظر اليها وهي هاربة وصدره منشرح ومنقبض معاً . منشرح لانه استطاع الانتقام قليلاً من تلك المتكبرة وراى في يده سلاحاً لاخافتها . ومنقبض لانه خاف نتيجة هذا الفخ الذي نصبه لها فاخذ يتساءل هل يبقى لها على الوقوف في هذه الطريق ام يتركها وشانها

وفي يوم الاحد التالي كان احتفال عظيم في قرية هرامونت . فان اكثر القرى المجاورة لها عزمت على ارسال جنود حرسها الوطني لاستعراضها مع جنودها لما بلغ الناس من بسالة جند هرامونت ومهارة قائدهم . فتواعد الناس ان يلتقوا في هذه القرية لمشاهدة الاستعراض

وما اشرقت شمس يوم الاحد حتى اخذ الناس ينسلون الى هرامونت من كل تلك الضواحي . وكانت جنود القرى المجاورة تاتيها على اصوات الابواق والطبول العسكرية فتزيد الناس رغبة في الذهاب الى هرامونت في ذلك اليوم لمشاهدة الاستعراض . ولذلك

كنت تري خاصة الناس وعامتهم متجهين مشاة او راكبين الى تلك القرية

وكان بيتو في ذلك اليوم قد استعار حصاناً ابيض كحصان المسيو لافاييت لتكون المشابهة تامة فركبه وهو عزيز النفس شامخ الانف وجمع فرقته ثم اصدر اليهم امراً بالزحف الى ساحة الاستعراض فسارت على ضرب الطبول سيراً سريعاً قوياً فكان لها منظر جميل

وما زالت حتى اطلت على ساحة الاستعراض و بيتو على فرسه يهتز طرباً و يشمخ عجباً. وكان الاهالي من القرى المجاورة لا يزالون يتوافدون الى الساحة بين زراع واشراف واصحاب املاك. فوجه بيتو نظراً الى اناس كانوا حينئذ قادمين . فابصر كاترين وامها راكبتين كل واحدة فرساً

فاحمرت وجنات بيتو واصفرت وجنات كاترين

ولما درى بيتو بوجود كاترين ازداد اهتمامه بذلك الاستعراض ليظهر لكاترين مهارته ومقامه

فاخذ كل قائد من قواد الجند يستعرض فرقته على حدة و يجعلها تقوم بحركات عسكرية مختلفة . فراى الحاضرون ان فرقة بيتو ممتازة عن جميع تلك الفرق بضبط حركاتها وخفتها وشدة حماستها فصفقوا لها تصفيقاً كثيراً وكانوا كلما صفقوا لها ازدادت مع قائدها بيتو حماسة واجادة

ثم اجتمعت تلك الفرق كلها للقيام بعمل واحد و ولت قيادتها الى قائد اقدم من بيتو عهداً ولذلك يجب ان يتقدم عليه فشرع ذلك القائد في اجراء مناورة كبرى

ولكن ما انقضى على ذلك عشرون دقيقة حتى ارتبك هذا القائد واضطرب لانه كان لا يُحسن المناورة فتضعضع هذا الجيش الصغير وتقلقلت صفوفه واصبح فرقاً فرقاً لا يعرف كيف يجتمع ولا كيف يسير . فاستاء الجنود من القائد لانه جعلهم سخرية امام الاهالي واستاء الاهالي ايضاً فصاحوا كلهم من فم واحد « بيتو بيتو »

فتنحى حينئذٍ هذا القائد مفسحاً المجال لبيتو . فوكز بيتو فرسه متقدماً بجأش ثابت وقلب مطمئن فزعق في تلك الصفوف المضطربة زعقة ارجعتها الى النظام على عجل . ثم اصدر امراً الى جنوده جنود هرامونت بالوقوف في مقدمة الجيش وصاح بها بالزحف . فكرت كرة رجل واحد بحماسة ونظام صفق لها الحاضرون كثيراً . ثم شرع بيتو في موقفه يامر وينهى بصوت جهوري عسكري كانت ترتج له تلك الصفوف كانها اشجار تضطرب

امام الريح وتهب معه كيفما هب حتى انتهت المناورة على احسن ما يُرام وهتف الاهالي لبيتو وللجنود هتافاً طبق السماء

فنزل بيتو حينئذٍ عن جواده وهو مبلل الوجه والجسم بالعرق وكان انتصاره عظيماً فتهافت عليه الناس ليهنئوه و يشكروه واحاطت به الفتيات ليشاهدونه و يحيينه

فكان بيتو عظيماً في موقفه منهم يردّ لكل واحد تحيته بابتسام او باشارة وعيناه تفتشان عن كاترين

فما لبث ان سمع قائلاً يقول له بجانبه

صباح الخير يامسيو بيتو

فالتفت بيتو واجاب سعدت صباحاً يامدموازل كاترين

فقالت كاترين ما لك لا تلتفت الينا يامسيو بيتو ولا تعبأ بنا اهكذا يصنع القواد العظام

فسلم بيتو على مدام بيلو التي كانت بازاء كاترين ثم اجاب · كلا يامدموازل انني لست قائداً عظيماً ولكني رجل خامل الذكر ملتهب شوقاً لخدمة وطني

فسمع الحاضرون هذه الكلمة فازدادوا تحمساً لبيتو وهتافاً له

فتقدمت كاترين حينئذ من بيتو وقالت همساً بيتو اريد ان اراك اليوم

فقال بيتو في نفسه عدنا والعود احمد · ثم اجاب· انا خادم مطيع ياسيدتي · فقالت كاترين عد معنا اليوم الى المزرعة · فقال الامر لك

الفصل الثالث والثلاثون

(الخل والخمر)

ولما تفرق الناس تسنى لبيتو وكاترين ان ينفردا للمحادثة على حدة· وهما سائران الى المزرعة فابتدرته كاترين بالسؤال قائلة لماذا عاملتنا هكذا يامسيو بيتو وما الذي دعاك الى ترك المزرعة

فبهت بيتو لهذا السؤال الذي ما كان ينتظره ثم قال تعلمين يامدموازل سبب سفري من المزرعة · فقالت لا اعلم شيئاً بل اقول لك انك عملت عملاً سيئاً

فعض بيتو شفتيه حنقاً لانه كان يعلم ان كاترين لا تجهل كونها هي التي طردته من مزرعتها . فقالت كاترين . ثم اجبني ما كنت تعمل في ذلك اليوم في الحرش حينما رأيتني فقال الشاب متردداً . انا . ما كنت اعمل شيئاً . فقالت ولماذا ذهبت الى تلك الجهة مع انها بعيدة من هرامونت . فقال الشاب كنت اقرأ هناك . قال ولماذا لم تقصدني حينما نظرتني بل لماذا لم ارك حينما مررت بك في مجيئي

فامتلأ هنا قلب بيتو حنقاً لانه ادرك ان كاترين تحاول خداعه . والتمويه عليه بهذا الكلام فقال لها . انا لم اركِ في مجيئك ياسيدتي فلعلك لم تاتي من الطريق بل من داخل الحرش

فعضت كاترين شفتها واجابت نعم نعم صدقت جئت من داخل الحرش لاجل النزهة ولكن ذلك لا يمنعك من رؤيتي لو قصدت ذلك . ولكنك لم تقصد من سوء الحظ . اما انا فقد كنت اطوف على فرسي في نواحي الحرش مفتشة عن عشبة لضمد جرح اصبت به ولذلك بقيت سائرة حتى وصلت الى المنزل وانا افتش عن العشبة

فقطب بيتو حاجبيه وقال اي منزل

فقالت المنزل ... منزل اسرة شارني القائم وسط الحرش الا تعرفه

فاجاب نعم اعرفه

فشعرت كاترين بضربة شديدة في قلبها حينما لفظ بيتو هذا الكلام

ثم التفت الشاب الى يدي الفتاة وسالها لا ارى في يديك جرحاً ياسيدتي كما ذكرتِ .

فقالت الجرح في قدمي لا في يدي . اما رايتني اعرج في مشيي

فقال بيتو في نفسه وحق السماء والارض انني رايتك تركضين اكثر مني حينما فررتِ من وجهي

اما كاترين فحسبت بعد ما تقدم ان بيتو لا يعلم شيئاً من امرها فقالت له بهيئة جدية . هذا امر لا ارضاه منك يامسيو بيتو ولا يرضاه ابي ايضاً . فان تركك المزرعة والغضب علينا بلا سبب امران لا يدلان على ودك لنا

وكان بيتو يشعر في اثناء كلام كاترين انها تهزأ به وتسخر منه . اذ كيف تجهل انها هي التي طردته من المزرعة واساءت مقابلته . فثارت نفسه لهذه المعاملة الجديدة لانها جرحت من جديد انانيته والانانية افعى لا يجدر بالانسان ان يدوس عليها مخافة ان تهب وتلدغه اللهم الا اذا كان يستطيع سحقها مرة واحدة

ولذلك رفع بيتو راسه امام كاترين وقال بهيئة جدية · مدموازل ارجوكِ ان لا تسخري منا· فعجبت الفتاة واجابت كيف اسخر منك ياموسيو بيتو · فقال الشاب · نعم الا تذكرين انك انت التي قلت لي انه لا يوجد لي عمل في المزرعة · وما معنى ذلك غير طردي منها · ثم انني غبت اياماً وشهوراً دون ان تسالي عني لتعلمي اذا كنت قد متُّ من الجوع او لا ازال حياً · ولما شاهدتني ذلك اليوم عند منزل شارني فررت مني فرارك من الموت

فصاحت كاترين · انا فررتُ · فقال بيتو محتدماً · نعم نعم · فررتِ فررتِ ولا اكذب عيني · وقد قلتِ انك ذهبتِ الى هناك لتفتشي عن عشبة تضمد جرحك فالذي يفتش عن عشبة في ذلك المكان لا يقيم ساعة فيه

فصرخت كاترين وقد هلع قلبها خوفاً · انا مكثت ساعة هناك ؟ لا تصدق ذلك ياموسيو بيتو

فاجاب الشاب بابتسامة اذا كنت انا لا اصدق ذلك فان الشجرة التي ربطتِ بها جوادك قد صدقته · ذلك ان هذا الجواد قد قشر جذعها كله واكل القشرة· وانت تعلمين ان ذلك لا يتسنى للجواد في اقل من ساعة · فاذهبي واسالي الشجرة

فازدادت كاترين هلعاً وصبغ الاصفرار وجهها فلم تنبث ببنت شفة· وكذلك بيتو فانه شعر بانه قال شيئاً ما كان يجب ان يقوله كله فسكت ايضاً

و بعد سكوت برهة من الزمان وهما سائران على الطريق وراء مدام بيلو التي كانت مشتغلة بالحديث مع بعض الرفيقات قالت كاترين مبهوتة · اصدقني يابيتو الست صديقاً لي

وقد قالت كاترين هذا القول بلهجة سحرية تختلب الالباب · فطاش لب الفتى بيتو وذهبت نفسه شعاعاً وصعد الكلام الى فمه فكاد ينطق بما تكنه نفسه من الشغف بهذه الفتاة التي ما فتأت تعذبه · ولكنه ضغط على نفسه وتساءل ماذا اصنع اذا قلت لها انني احبها ثم قالت لي انها تحبُّ سواي · الا اموت حينئذٍ ياساً وغماً · فالاجدر بي ان اسكت

فالتفت بيتو اليها · وقال وا اسفاه ياسيدتي انت تعلمين انني صديق حميم للاب بيلو وكل اسرته

قال هذا وكانه لم يعد قادرًا على كتمان ما في نفسه فانحنى مسلمًا ثم ذهب مسرعًا دون استئذان كاترين

وكان ذهابه الى الحرش القريب . فكان يمشي وهو يرقص طربًا . ذلك لانه راى كاترين . وحادث كاترين . ومست يده يد كاترين . فاخذ يهيم بين تلك الاحراش مغنيًا مع عصافيرها متمايلاً مع اغصانها طربًا نشوان من خمرة الحب الذي يملأ نفسه . ثم اخذ يبكي كصغار الاولاد . وبعد البكاء اخذ يغني اشبه برجل فقد الصواب . ولما كان نسيم المساء يهب عليه في مسيره فيبرد حرارة جبهته وينعش صدره المتقد بالنار كان بيتو يقف ناظرًا من خلال اغصان الاشجار الى صفحة السماء الصافية الزرقاء التي فوقها والفضاء الذي حوله و يقول في نفسه وهو يتألم من ذكر كاترين . هل هذا ما يسمونه حبًا فانه تارة يكون حلوًا وطورًا مرًا

وا اسفاه يا بيتو ان الحب خلٌ وخمر وقد اخذ النبيل ايزيدور شارني كل الخمر ولم يبقِ لك غير الخل

اما كاترين فانها سارت وراء امها نحو المزرعة مبهوتة .وقد اخذت منذ هذا الحين تشعر بالخوف من بيتو والرغبة في مداراته واتقائه . واما بيتو فبعد بكائه في الحرش تارة والغناء تارة اخرى شعر بجوع شديد فعاد الى هرامونت على عجل . وقد قال الكاتب شاتو بريان « عجب الناس من غزارة الدموع التي وُجدت في مقلة ملك ولكن من يستطيع ان يقيس الفراغ الذي يُحدثه البكاء في معد التنبان»

الفسل الرابع والثلاثون

(حلٌ غير منتظر)

ولما عاد بيتو الى هرامونت وجد جنوده مجتمعين في مادبة مع بعض بنات القرية وهم ياكلون ويتحادثون و يضحكون فجلس بيتو معهم واخذ ياكل و يشرب باشتهاء شديد . فسرى عنه ما كان يجده من تضخم القلب وامتلاء الصدر واضطراب الفكر

ثم انه بعد نصف ساعة لما سطا الخمر على عقله وطرد كل ما كان فيه اخذ بيتو يفكر في حادثته مع كاترين فوجد نفسه قد اساء معاملتها . فاخذ يقول في نفسه ما الذي اوجب

علي ان اخاشن كاترين تلك المخاشنة · ولماذا لم اجاوبها باللطف والمجاملة على لطفها ومجاملتها

ثم في سكرة حبه وخمره ذكران يده لمست يدها وكتفه كتفها وسمع صوتها الرخيم يناديه بكلمات لطيفة ويوبخه توبيخ المحب · وعيناها البراقتان الساحرتان تبث الكهربائية في نفسه وفي كل جسمه فطار صوابه لانه احزنها وتركها على حين فجأة وراح في سبيله دون ان يعبأ بها او يلتفت اليها · ولماذا كل ذلك · الا انها تحب ايزيدوردي شارني ومن يعلم اذا كانت تحبه حباً حقيقياً · ربما انها شغفت بغنى هذا الشاب وشرف مقامه فمالت اليه ميلاً بسيطاً فقط · فهل يستوجب الميل البسيط ان يسخط بيتو هذا السخط على كاترين · ومن يعلم اذا كان شارني لا يسافر في مدة قريبة الى باريز حيث يتزوج بفتاة من العيال الشريفة فتنساه كاترين وينساها

فاستنتج بيتو من كل ذلك انه سلك مع كاترين مسلكاً في غير موضعه وانه يجب عليه ان يعوض ما فاته

ولو كان بيتو شاباً فاسد الاخلاق لقال في نفسه — هذه الفتاة تحب سواي وتُظهر الحب لي خوفاً مني فانا اجاريها في حبها واضحك منها كما تضحك مني

ولو كان شاباً قاسياً جامد القلب لقال في نفسه — هذه الفتاة تحب سواي وتُظهر الحب لي خوفاً مني فانا لا بد لي ان انتقم منها · ولذلك فاني اخيفها واكشف امرها واجعل لها طريق الحرش التي تسير فيها الى حبيبها مملوءة شوكاً وحسكاً

ولكن بيتو كان ذا طبيعة كريمة وقلب طاهر فكان لا يظن السوء باحد ولا يريد الشر لاحد · ولذلك رأى من واجباته بعد كل ما جرى ان يسترضي كاترين ويحسن مجاملتها بدل مخاشنتها والاساءة اليها

وتوصلاً لذلك ينبغي اولاً الوصول الى كاترين

وكان قد انقضى على كاترين اكثر من ثلاث ساعات منذ فارقها بيتو · على ان بيتو كان نشوان من حبه وخمره كما تقدم فلم يفطن لذلك · بل نهض في الحال عن كرسيه وخرج مسرعاً قاصداً الحرش ثم اطلق ساقيه للريح شاخصاً الى مزرعة الاب بيلو وفي يده عصا يتوكأ عليها في ظلمة ذلك الليل ويطرد بها الحيوانات عنه

فلندعه سائراً بخطاه الواسعة التي نعرفها نحو كاترين ولنعد الى هذه الابنة

فان كاترين سارت وراء امها بعد مفارقة بيتو وهي تضرب اخماساً لاسداس وفي

يدها عنان جوادها وكانت تعيد في نفسها الحديث الذي دار بينها وبين بيتو لترى اذا كان يفهم منه شيء مما تريد فهمه

وما زالت الام وابنتها سائرتين نحو المزرعة حتى وصلتا الى مستنقع قريب منها. وكانت الام متقدمة والابنة متاخرة فمرت الام اولاً ولما اتت نوبة كاترين في المرور سمعت في الظلام حركة خفيفة بازائها فالتفتت فسمعت صفيرًا خفيفًا جدًا فوقفت اما الام فبقيت سائرة اذ لم تسمع شيئًا

وما وقفت كاترين حتى تقدم منها رجل مسرعًا فوقفت له كاترين غير هيابة كانها اعتادت ان تراه . اما الرجل فدنا من جوادها وهمس قائلاً مولاتي ان مولاي ايزيدور يرجوك ان تنتظريه في هذا المكان

فعرفت كاترين ان الرجل خادم ايزيدور دي شارني ولكنها عجبت من طلبه مقابلتها في تلك الساعة. وتساءلت في نفسها ما سبب هذه المقابلة. هل ذلك للاجتماع بها ومحادثتها كلا . لانه كان يطلب منها ذلك على الاقل بصورة الطف من هذه الصورة . فماذا جرى له اذًا . وما هذا الشان الجديد

كذا كانت تفتكر كاترين حين ابلاغ الرسول هذه الرسالة اليها. ثم انها اجابته بانها تعود هذه الليلة الى ذلك المكان ثم سارت في طريقها

ولما وصلت مع امها الى المزرعة تعشتا بعد الاستراحة مدة وجيزة ثم دخلت الام الى غرفتها لتنام . فدخلت الابنة الى غرفتها ايضاً

فخلعت الام ملابسها واما كاترين فاستلقت على فراشها من غير ان تخلع ملابسها وبقيت تنتظر

وبعد هنيهة دقت الساعة العاشرة . فتقلبت كاترين في فراشها وبقيت تنتظر ايضاً . ثم دقت الساعة العاشرة ونصف ثم الحادية عشرة فنهضت كاترين بتأنٍ ونزلت الى غرفة الطعام

وكانت غرفة الطعام مشرفة على الشارع وفيها نافذة تؤدي اليه ففتحت كاترين هذه النافذة وخرجت منها الى الشارع ثم ابقتها مفتوحة لتتمكن من الرجوع منها

ولما اصبحت في الشارع سارت ركضاً الى المكان الذي وعدت بانها تكون فيها . وكان قلبها يخفق خفقانًا شديدًا والنار تتاجج في دماغها لخروجها من بيتها في مثل تلك الساعة وعلى هذا الوجه. وماوصلت الى المكان المذكور حتى كان الاضطراب قداخذ منها كل ماخذ

فوقفت تحت شجرة هناك تنتظر مرتجفة ويداها واحدة على راسها والاخرى على قلبها

ولكنها لم تنتظر وقتاً طويلاً · فانها ما لبثت بعد بضع دقائق ان سمعت وقع حوافر خيل قادمة · وبعد دقيقة ابصرت ايزيدور دي شارني واقفاً قريباً منها

فمد لها الفتى ذراعيه من غير ان ينزل عن جواده واخذ راسها بين يديه قائلاً · كاترين ان اخي يستدعيني الى فرساليا

ولكن كاترين ما سمعت هذا الكلام حتى شهقت وخنقت صوتاً كاد يخرج من صدرها ثم قالت بل ابقَ ابقَ ابقَ لا تسافر

فقال الفتى · كاترين لقد قتلوا اخي جورج ولذلك طلب مني اخي الذي هو اكبر سناً مني ان اسافر لناخذ له بالثار · فقالت كاترين وراسها بين يديه مستند الى راسه · بل ابقَ ابقَ رحماك لا تسافر فتقتلني · فقال وما العمل بالشرف يا كاترين فانه يجب ان ننتقم · فصاحت كاترين بهذه الكلمة · يا لتعاستي · ثم سقطت بين ذراعيه · فانحنى ايزيدور عليها فشعرت كاترين بدمعة سقطت على وجهها · فالتفتت اليه وقالت · شكراً لك يا ايزيدور فانني علمت الآن من بكائك انك تحبني · فقال الشاب · القبلة الاخيرة يا كاترين · ثم انحنى على وجنتيها فقبلها بشفتين ملتهبتين وقلب محترق · فلما رات الفتاة انه لا مناص من هذا السفر خانتها قواها كلها فاغمي عليها وسقطت على الارض من بين ذراعيه

وكان ايزيدور يخشى ان لا يقدر على السفر بسبب كاترين مع ان واجباته توجبه عليه ولذلك فانه حين انفصل عنها وانفصلت عنه تزود نظرة منها واعمل المهماز في شاكلة الجواد فسار به الجواد بسرعة البرق الخاطف ووراءه خادمه فبقيت كاترين المسكينة ملقاة على الارض بلا حراك

ولكن لم يغب هذان الفارسان وراء حجب الظلام حتى ظهر رجل ماشٍ يخطو واسعة وهو يقصد مزرعة الاب بيلو وفي يده عصا يتوكأ عليها · وكان هذا الرجل بيثو نفسه يمشي وهو مطمئن البال · غير انه ما وصل الى مكان الملتقى حتى عثر بشيء كان في وسط الطريق فسقط ممدداً على الارض · وفي سقوطه شعر بوجود جثة انسان وهي التي عثر بها فدنا من وجه الجثة وحينئذٍ اقشعر جلده وارتعدت فرائصه فصاح ملء فمه — كاترين هل ماتت كاترين

ثم صرخ صرخة سمعتها كلاب المزرعة وجاوبتها بالعواء واخذ يدور حول الجثة ويقول كاترين ميتة يالله من قتل كاترين

قال هذا ثم اخذ تلك الجثة الباردة الجامدة بين ذراعيه وجلس بها على حجر هناك وهو دامع العين مصفر الوجه يندب ويقول ٠ آه يا كاترين

تمت رواية « نهضة الاسد » وتليها رواية « وثبة الاسد » وهي تابعة لها